
أثر النبي
قصص قصيرة من وحي السيرة
عمر طاهر
أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامي ذ.م.م

أثر النبى

عمر طاهر

طبعة 2015 الطبعة الثانية

طاهر، عمر.

أثر النبى / قصص قصيرة من وحى السيرة – ط ١.- الجيزة: اطلس للنشر والانتاج الاعلامى، ٢٠١٤ .

١٦٨ ص ,٢٠ سم

تدمك: ١ ٣٣٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الدينية

٢- السيرة النبوية

٣- القصص العربية القصيرة

أ - العنوان

٨١٣,٠٨٨

أثر النبى

عمر طاهر

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى
عضو مجلس الإدارة المنتدب
نوران المصرى
رقم الإيداع
٢٠١٤/٢٥٠١٤
الترقيم الدولى
٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٣٣٥-١
الطبعة الثانية
طبعة 2015

الكتاب : أثر النبى

المؤلف : عمر طاهر

الغلاف : وليد طاهر

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

شكر وإهداء..

لسماحة الإمام الشيخ صلاح الدين التجاني

زَيْنَبُ

(رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهَا)

(١)

« لن أُومِن بأبيكِ ولا برسالته ».

قالها الزوج وانصرف.

أما أنها أسلمت وهو غائب مع تجارته في الشام فقد فعلت، وهي تثق أنه لو كان موجودا لسبقها إلى الإسلام.

أما أنه لم يفعل بعد عودته، على الرغم من أن النّبيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاه إلى الإسلام، فقد خاف على صورته أمام الناس، خاف أن يقولوا إنه هجر دين آبائه لإرضاء زوجته.

بَكَتْ زينب كما لم تبكِ من قبل، وانتفضت لَمَّا جاءتها الأخبار تقول إن قُرَيشا تضغط على أزواج بنات محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليطلِّقوهُنّ، وإن عتبة وعُتَيْبة زوجَي رُقَيَّة وأُمّ كُلْثوم استجابا للضغوط.

وقف أبو العاص بن الربيع زوجها أمام الكعبة يتذكَّر الحُبّ الذي كان يكبر منذ الطفولة مع كل زيارة لبيت خالته خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، زينب الطفلة التي كانت كعبته كلَّما رجع من السفر مع تجارته محمَّلًا بالشوق والحنين إلى ابتسامتها العذبة، تَذكَّر كيف غار منه شباب قُرَيش عندما قبل به سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

زوجًا لزينب، وكيف أن قُرَيشا انشغلت بمعاتبة النَّبيّ لفترة لإيمانهم أن ابن العمِّ أَوْلَى من ابن الخالة.

تَذكَّر أمامةَ طفلتَهما، بقمصانها القصيرة الملوَّنة المبهجة.

مرَّت الصور أمام عينيه سريعًا، واختار هذه المرة أن لا يجامل قُرَيشا في دعوتها لمفارقة بنات النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان مشوَّشًا في ما يتعلق بدينه، أمَّا بخصوص دنياه فقد قالها صريحة: «لا والله لا أفارق صاحبتي ولا يعوضني عنها أن لي أفضل امرأة من قُرَيش».

(٢)

بدأت بشائر حرب بدر بين المسلمين المستقرِّين في المدينة وأهل قُرَيش.

بدأها المسلمون عندما أرادوا أن يستردُّوا أموالهم التي سلبَتها قُرَيش منهم فهاجموا قافلة في طريقها من الشام إلى مكَّة، وعندما وصل الخبر إلى مكَّةَ كان الغضب مستعِرًا.

أعدَّت قُرَيش جيشًا مُخِيفًا.

انتبهت زينب التي تركها أهلها في مكَّة -ولم يكُن النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد فرَّقها عن زوجها بعد- على أصوات الجنود، ونظرت إلى ابنتها أمامةَ فتَذكَّرَت جيش المسلمين يقوده والدها، وجيش الكفار يقوده زوجها، فقالت لها: «لن تطلع علينا الشمس يا ابنتي في مثل يومنا هذا إلا وإحدانا يتيمة».

(٣)

فرِحَت عندما دخلت عليها عمَّتها عاتكة تخبرها بانتصار أبيها في الحرب، لكن..

- لكن؟ ما الخبر يا عمَّتاه؟

«لم يُقتل زوجك لكنه أسير».. قالت عمتها.

كانت النتيجة مُرضِيَة لها، فالأب منتصر، أمَّا عودة الزوج فهي أمر تعرف تمامًا كيف ستتعامل معه.

لم يكُن آل أبي العاص ينقصهم المال ليفتدوا به ابنهم الذي أسره جيش محمَّد في بدر، لكن زينب اختارت أن تفكّ أسر زوجها بطريقتها.

جلس شقيق ابن العاص بين يدَي رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قائلًا: « بعثتني زينبُ بهذا فداءً لزوجها »، ثم أخرج صُرَّةً ووضعها بين يدي النَّبيّ، فتح سيدنا النَّبيّ الصُّرَّةَ فوجد قلادة خديجة التي أهداها إياها والتي أهدتها بدورها زينبَ في عرسها، فخفق قلبه وارتعش.

وجد ابنته بهذه القلادة تذكِّره بالحب الذي كان بينه وبين خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، وجدها تذكِّره به حتى يتفهَّم السرَّ وراء شفاعة بنت النَّبيّ لواحد من كُفَّار قُرَيش.. كانت تذكِّره بأن ابن العاص زوجٌ وحبيبٌ وابنُ خالةٍ.. كانت تذكِّره أنه ليس من طرف زينب فقط ولكن من طرف خديجة حبيبته أيضًا، أن اعْفُ عن أبي العاص... كان الصمت مؤثِّرًا، سالت دموع أصحاب الرَّسُول وأداروا وجوههم بعيدًا.

صمت النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قبل أن يقول لأصحابه : إن رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرها وترُدُّوا عليها مالها فافعلوا.

ففعلوا.

(٤)

كان أبو العاص في طريق عودته من الأسر يسأل نفسه لماذا وعد

سيدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يردَّ إليه ابنته فور وصوله إلى مكَّة... ؟

هل لينجو بنفسه من الأسر؟

لم تكُن نجاته مرهونة بهذا الشرط، بل جاءت بعد أن عفا عنه النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والمسلمون.

هل لأنه يقدِّر تمامًا محبَّة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لابنته؟

إن أبا العاص أيضًا يحب طفلته أمامة التي من المؤكَّد أنها سترحل مع أمِّها.

هل لإيمانه بأن زينب لم تعُد تحِلّ له لكونها مسلمة ولكونه مشركًا؟

لكنه لم يقتنع بالإسلام نفسه حتى يقتنع بقواعده.

كل ما يعرفه أبو العاص أنه عندما نظر إلى وجه النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يطلب منه أن يَعِدَه بإرسال زينبَ إلى المدينة لم يقوَ على الرفض.. والحقيقة أنه وعد وأوفى.

ولكن كيف لزينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أن تخرج من مدينة تعيش حزنًا كبيرًا بسبب والدها الذي انتصر على أهل هذه المدينة؟

كانت هند بنت أبي عتبة قد فقدت أباها وأخاها وعمَّها في بدر، فلم تدَّخِر جهدًا في أن تُلهِب رغبة قُرَيش في الانتقام، لكنها عندما علِمَت باستعداد زينبَ للرحيل ذهبت إليها متعالية على أحزانها، قالت لها: أي ابنة عمِّي، إن كانت لك حاجة بمتاع أو مال يرفق بك في سفرك فلا تتحرجي منِّي.

خافت زينبُ من عرض هندَ فأبلغتها أنها لن ترحل وقررت تأجيل الفكرة.

بعدها بأيام طلب أبو العاص من شقيقه أن يصحب زوجته وابنتهما إلى المكان الذي اتفق مع النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتسلم فيه مندوبُه (زيد بن حارثة) زينب.

في طريقها تَتَبَّعها المشركون الذين قهرهم محمَّد في بدر.

كانت زينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) حاملًا، لحقها هبار بن الأسود فروَّعها بالرُّمْح ونخس البعير فألقى بصاحبته على صخرة، فطرحت جنينها على أديم الصحراء، وظلت تنزف دمًا حتى وصلت إلى يثرب وهي منهارة، فامتزجت مشاعر الفرح بقدومها بغضب الأب الرَّسُول لابنته.

عندما هجم المشركون على زينب انتفضت هندُ بنت عتبةَ وسخِرَت من رجال قُرَيش الذين اعتدوا على امرأة عزلاء..

سألتهم: أين كانت شجاعتكم هذه يوم بدر؟

(٥)

عاشت زينبُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) في المدينة على أمل أن يهدي الله حبيبها للإسلام .

وبعد وقت طويل، وفي ليلة بينما سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يؤمّ المسلمين في صلاة الفجر، وقبل أن ينهي صلاته، سمع صوتًا يقول: « أيها الناس، إني أجَرْتُ أبا العاص بنَ الربيع ».

كان يعرف أنه صوت زينب ..

فقال للمصلِّين: « أما والذي نفس محمَّد بيده، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم »، وصمت ثم قال: « قد أجرنا مَن أجارت».

كان أبو العاص يقود قافلة بتجارة قُرَيش إلى الشام، وعند عودته التقته سَرِيَّة من المسلمين فأصابوا كل ما معهم وهرب هو

منهم وتَسلَّل حتى وصل إلى خيمة زينب التي ارتدَّت إليها رُوحُها وهي تراه يدخل عليها.

لم يعترض النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على أن تُجِير ابنته ابا العاص، وقالت له: « إن قرُبَ فابنُ عمٍّ، وإن بعُدَ فأبو ولد، وإني قد أجَرْتُه »، فقال: « أكرمي مثواه، ولا يقْرَبْك فإنك لا تحِلِّين له ».

نظرَت زينب إلى أبي العاص قائلة: « فيمَ هذا العذاب؟ ».

قال: « حتى يقضي اللهُ فينا أمره ».

قالت: « يرحمنا الله ».

كانت زينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) قد هتفت عندما دخل عليها أبو العاص الخيمة قائلة: «الله أكبر»، فوضع أبو العاص رأسه في الأرض قائلًا: « لا يا زينب، لم آتِ مُسلِمًا »، ثم قصّ عليها نبأ مطاردةِ السَّرِيَّة له.

في الصباح قال النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لصحابته: « إن هذا الرجل من حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا، إن تحسنوا وترُدُّوا عليه فأنا أحب ذلك، وإن أبيتم فهو فَيْءُ الله وأنتم أحَقُّ به ».

فرَدُّوا عليه أموال قُريش.

(٦)

أمام الكعبة وقف أبو العاص يوزِّع أموال التجارة الرابحة على أصحابها...

وبعد أن فرغ قال:

« يا معشر قُرَيش، هل بقي لأحد منك عندي مال لم يأخذه؟ ».

قالوا: « لا، جزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا ».

فنظر إليهم ورفع صوته قائلًا: « إذًا فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وإن محمَّدًا رسول الله ».

(٧)

عاش أبو العاص مع زينب عامًا بعد أن زوَّجه النَّبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إياها من جديد.

كان أبو العاص كَلِفًا بها، وكان يموت كل ليلة وهو يراها تعاني من عِلَّتِها التي لزمتها منذ سقط جنينها منها على رمل الصحراء..

كانت تُحتضر ببطء يعذِّب زوجها، إلى أن رحلت.

يغمض الواحد عينيه فيرى قبل ذلك بسنوات طويلة...

كانت أمها السيِّدة خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) تصارع الموت وهي إلى جوارها.. نظرَت السيِّدة خديجة إليها ورأت رقبتها تزيِّنها القلادة التي أهدتها إياها يوم عُرسِها.. مدَّت السيِّدة خديجة يدها ولمست القلادة قائلة: « أهداني والدك إياها منذ سنين، لكنها تبدو أجمل في عنقك ».

لم تقوَ يَدُ خديجة أن تظلَّ ممسكة بالقلادة فهَوَت.. وقبل أن تسقط في حِجْر زينب التقطتها وقبَّلَتها.. فانهمرت دموعهما معًا.

الحفيدة المنسيَّة

أمامة بنت زينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا)

(١)

لم يستقر بها المقام في حال واحد طول حياتها .

كانت تعرف أن ميلاد الحزن مجرّد عدٌ تنازلي لميلاد الفرح .

وما بين المربّعات المُربكة التي كانت تتحرك في حدودها لم تذكر كتب السيرة أنها اشتكت يومًا ما .

(٢)

كانت زينب تُرضِع أمامة وتحكي لها عن الجَدِّ والجَدَّة (محمَّد وخديجة)، تعلِّمها أن الحُبّ يصنع للإنسان جذورًا تمنع الأيام من اقتلاعه، تحكي لها النظرية ثم تقدِّم لها تطبيقًا آخَر.. قصة حُبِّ أُمِّها وابيها (زينب بنت النَّبيّ وأبي العاص بن الربيع).

وعندما خرج الأب المشرك لِيحارب الجَدَّ النَّبيَّ وقفت الابنة أمام باب الدار مهزومةً وهي ترى كلَّ ما آمنت به ينهار في لحظة، وكان أن مسحت ضلعًا من أضلاع المربَّع الذي تقف فيه لتنهار خارجه دون أن يحُدَّها شيء .

(٣)

بعد شفاعة من الأمّ زينبَ أطلق الجَدُّ سراح الأب على أن يطلّق زوجته وتهاجر زينب وابنتها إلى المدينة.

في الطريق كانت زينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) تفكِّر أن الحُبّ الذي كتب لزوجها حياةً جديدة كان هو نفسه الثمن.. فلا حب ولا حياة.

فجأة انتفض البعير الذي كان يُقِلُّ أمامة وأمها فوجدت أحد المشركين يروِّعهما برمحه. كانت الأمّ مستلقية تنزف وتبكي على جنين كان في بطنها هو الآن مجرَّد خيط من الدم يتشربه رمل الصحراء على مهل.

رسمت أمامة بأصابعها النحيلة مربَّعًا حول الدماء ودفنت فيه شقيقها أو شقيقتها، لم تعرف بالضبط.

(٤)

بينما جدُّها (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يؤمُّ الناس للصلاة في المدينة، كانت تنعس فوق كتفه مُؤتنِسَة بأنفاسه .

يهم الجَدُّ بالسجود فيضعها أرضًا فتشعر بالخوف فتبدأ في البكاء.

يقوم الجَدُّ من السجود فيحملها فوق كتفه ويبدأ في التلاوة من جديد.. فتنام.

كانت كلمة « الله أكبر» تعني لها مربَّعًا كبيرًا به من السعادة يعجز الأطفال عن فهمه.. والكبار أيضًا .

«النَّبيّ قَبِلَ الهديَّة»، وكانت الهديَّة هذه المرة قلادة من الجزع محلَّاة بالذهب، عرضها النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على أهل بيته فقُلن إنهن لم يرَيْن أحلى منها، فقال النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): ارْدُدْنَها إليّ .

أمسك النَّبيّ بالقلادة وتأملها قائلًا : والله لأضعَنَّها في رقبة أحب أهل البيت إليّ.

تروي كتب السيرة أن السيِّدة عائشة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) قالت: أظلمَت علَيّ الأرض خشية أن يضعها في رقبة غيري منهن، ولا أراهن إلا قد أصابهن مثلُ الذي أصابني .

تَوَتَّرَت الأجواء في انتظار معرفة من سينال هذا الشرف.

كانت أمامة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) نائمة، ويبدو أن هذه الضجة قد أيقظتها.

قفزت باتجاه حضن جَدِّها، كان على عينيها غمص فمسحه بيديه ثم قبَّلها ووضع القلادة في رقبتها.

كان مربَّع الفرحة وقتها على قدر من السَّعَة يستوعب كلَّ مَن حضر هذه اللحظة.

بعدها بأيام استيقظت أمامة على صوت أبيها يدخل الخيمة عليها هي وأمِّها، يستجير بها بعد أن طارده المسلمون في رحلة عودته من الشام وكادوا يأسرونه للمرة الثانية، دخل على زينب يستجير بها فتُجِيرُه، اجتمع شمل الأسرة دون مقدِّمات، ثم انفرط العقد من جديد.

قال له النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «إنها لا تحِلُّ لك»، ثم ضَمِنَ له سلامة العودة إلى أهله.

كانت أمامة تغلق عينيها كل يوم على ملامح الأب حتى لا تنساها من جديد.

كانت تستذكرها جيدًا وتدقِّق في مواضع الشيب حتى تميزه بها، تحاول أن تتذكر لون عينيه فتفشل فتسأل أُمَّها، تأتيها الإجابة غير مُقنِعة بالنسبة لها فتحدِّد اللون الذي يُرضِيها.

كان ظهور الأب ورحيله غير مُوجع، فقد رأت في عيني أمها أنه سيعود...

فعاد بالفعل.

أسلم الأب فرَدَّ عليه الجَدُّ زوجته.

المربَّع الآن يليق بصبيَّة حالمة.. خافت أن يهرب منه الأب مجدَّدًا فحوَّطته بأسوار.. ولكن مِن الوُرُود.

ما بين جَدٍّ هي أحَبُّ أهل بيته إليه، وأب وأُمٍّ بدا حبُّهما صُلبًا لا يهزمه شيء، عاشت أمامة أجمل أيامها، إلى أن بدأت صِحَّة زينب في التراجع.

(٥)

كان الجد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُشرِف بنفسه على تغسيل ابنته زينب (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا).

« غسِّلْنَها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا ».. قال النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

ثم طلب منهن أن يُبلِغنه عندما ينتهين.

وعندما فعلن خلع النَّبيّ إزاره ثم مدَّه إليهن وطلب منهن أن يضَعْنَه على جسد ابنته حتى تشعر به.

وفى اللحظة التي هبط فيها ثوب الرَّسُول على وجه زينب كان أبو العاص يحتضن أمامة ويبكيان في مكان ما.

(٦)

في بيت خالتها فاطمة كانت أمامة تبدأ حياتها الجديدة.. أولاد الخالة الحسن والحسين وزينب وأمّ كُلْثوم (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) .

كان الجميع يغمرها بحبٍ كان له طعم يختلف من شخص إلى آخَر.

كان الأب يرى فيها قصة حُبِّه، وكانت هي دواءه من حزنه على رحيل الزوجة.

وكان الجَدُّ يرى فيها ابنته ثم يدقِّق النظر فيرى خديجة الزوجة وحُبَّه الأوَّل.

وكانت فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) ترى فيها مستقبَل نساء الإسلام كما تحلم به، فاحتضنتها بالعلم والفضيلة.

كانت تتنقَّل كفراشة بين مربَّعات المحبة إلى أن بدأت تتهاوى واحدًا تلو آخَر.

رحل الجَدُّ.

ثم رحلت الخالة بعده بشهور.

كانت تشكو إلى أبيها حُزنَها فلم يردّ.. دقَّقت النظر إلى عينيه فتأكدت أن أُمَّها كانت مُحِقَّة عندما أخبرتها عن لونهما، كانت تعتقد طوال الفترة الماضية أن لونهما كما تخيلت بالضبط، إلى أن فوجئت أنها كانت مخطئة بينما تُسبِل عينَي والدها لينام إلى الأبد.

(٧)

كان أبو العاص قد أوصى الزُّبَيْر بن العوَّام أن يكون وَلِيَّ ابنته، فأخذها لتعيش في كَنَفه هو وزوجته أسماء بنت أبي بكر.

كان الزُّبَيْر وأسماء يسعيان لمرضاة النَّبيّ ميتًا كما كانا يسعيان لمرضاته حيًّا، وكانا يعرفان ماذا تعني له أمامة، فكانت محبتهما لها فترة نقاهة من الأحزان التي استهلكت قلبها الصغير.

إلى أن حان موعد الفرح من جديد .

قال سيدنا عليّ بن أبي طالب للزُّبَير: «لقد أوصتني فاطمة رحمها الله بالزواج بأمامة»، فكان الزواج .

عاشت أمامة تنهل من علم وكرم علي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وكان عليٌّ يحبها في الله ورسوله، إلى أن أصبح أمير المؤمنين... ثم استيقظَت يومًا على مقتله.

كانت تدور حول جثمان عليٍّ حائرة، لا تدري ماذا تفعل، شعرت أنها لم تكُن بحاجة إليه من قبل مثلما تشعر بذلك في هذه اللحظة بالذات..

كانت تطوف حوله وتطوف برأسها المشاهد كلُّها..

حُبٌّ ثم حرب ثم فراق ثم سعادة ثم دفء ثم موت ثم عائلة جديدة فموت ففراق ثم يُتْم فحُزْن ففرح فأرملة تدور حول جسد زوجها...

انهارت على ركبتيها أمام جسد علي وضعت رأسها على بطنه وبكت كما لم تبكِ من قبل بينما ترفع إصبعها بإشارة التوحيد.

(٨)

قبل أن يموت عليّ (رضي الله عنه) قال لها: « أخشى أن يطلبك معاوية للزواج، أوصيك بعدي بالزواج بالمغيرة بن الحارث ».

بعد وفاة علي أرسل معاوية يطلب خطبتها.

أنقذت نفسها ونفّذَت وصيّة عليّ.

(٩)

بعد فترة من الزواج أنجبت غلامًا.

كانت تُرضِعه وتمسح رأسه عندما دخل زوجها يسألها: «ماذا سنسمّيه؟».

تَجوّلَت عينا أمامة في الغرفة فلم ترَ إلا كل الأحبة الذين ماتوا وهم يبتسمون لها..

قالت: «أسميته يَحْيَى».

رُقَيَّةُ

(رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهَا)

(١)

لم تتخيل يومًا ما أن تُذكر «حَماتها» في القرآن، لأنها عندما كانت تعيش في كنفها لم يكُن القرآن ظهر بعد.

حماتها «حمالة الحطب» زوجة أبي لهب.

عندما زار وفد من آل عبد المطَّلب بيت الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لطلب يد ابنتيه رُقَيَّة وأُمِّ كُلْثوم لعتبة وعُتَيْبة ابنَي عمهما أبي لهب، انقبض فردان من أهل البيت الكريم.

الشقيقة الصغرى فاطمة سالت دموعها خوفًا من أن تعيش وحيدة بلا أخت، تحديدًا رُقَيَّة، صديقتها الحنون.

أمَّا السيِّدة خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) فلم ترَ في عرض الزواج غير أن أُمَّ جميل بنت حرب ستكون حَماة ابنتيها، كانت تَعرِفُ عنها قسوة طبعها وحِدَّة لسانها وقوة شخصيتها على زوجها وابنَيها، وسواد قلبها.

(٢)

ذاقت السيِّدة رُقَيَّة الأمَرَّين في بيت أم جميل..

كانت ترصد حركاتها وتعُدُّ عليها لقيماتها وتحاسبها إن رنَّت أو صمتت..

وكلَّما رأت في رُقَيَّةَ ملمحًا من عظمة ورُقِيٍّ وصفاء السيِّدة خديجة كانت تُجَنُّ وتستعِرُ نار القسوة في قلبها.

ظلَّت السيِّدة رُقَيَّة تفكِّر كثيرًا في أن تشكو إلى أبيها أو إلى أُمِّها مُرَّ العيش في بيت أم جميل، لكنها كانت تخاف أن يَحزُنَهما ما تلقاه، فالتزمت الصمت...

إلى أن أعلن النَّبيُّ رسالته على الملأ.. فبدأت الحرب على الرَّسُول مستهدِفَة أضعف نقطة في قلبه..

«رُدُّوا عليه بناتِه»، قالت قُرَيش..

«طلِّق ابنة محمَّد ونزوجك أي امرأة من قُرَيش شئت»، قالت أم جميل..

طلَّقها عتبة، ولم يُرَ بعدها عائلة أشدُّ عداوة للنَّبيّ من أبي لهب وزوجته.

(٣)

عادت رُقَيَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) إلى بيت أبيها، لكن الحال كان قد تَغَيَّر، فقد تَبدَّد الأمان والهدوء والسعادة التي كانت تملأ كل أركان

هذا البيت.. وتأكّدت بنفسها عندما سمعت أباها يقول: « مضى عهد النوم يا خديجة ».

وكل سيدنا النَّبيّ أمر ابنته إلى خالقه، فجاءها سيدنا عثمانُ بْنُ عفَّانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يسعى للزواج بها، يُظِلُّه نَسَب عريق وطلعة بهيَّة ومال وفير وخلق نادر.. تقول كتب السيرة: « لم يُرَ زوجان أجمل منهما ولا أبهى ».

لم تدُم السعادة طويلًا، اشتدت الحرب على الإسلام واختصَّت سيدنا عثمان بمقاطعة أهله وعشيرته له وانقطاع سبل تجارته.

كانت بنات النَّبيّ قد أسلمن جميعًا، لكن عندما فكَّر في أن يهاجر المسلمون إلى الحبشة اختصَّ أول من اختص بالقرار رُقَيَّة وزوجها.

ودَّع رُقَيَّةَ وزوجها ليلة الرحيل قائلًا: « واللهِ إنهما أول مَن هاجر إلى الله بعد لُوط ».

من فوق الجمل حانت من رُقَيَّة التفاتة ناحية ديار الطفولة وهي تودعها فسالت دموعها، انتبهت فوجدت عثمان ينظر ناحيتها نظرة محبَّة اختلطت بالعتاب، خجلت من دموعها وقالت: « الله معنا ».

(٤)

خيط من دم كان مبتدأ استجابة الله لدعوة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

دعا النَّبيُّ أن يُعَزَّ الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو عمر بن الخَطَّاب، وكان أكثر ميلًا إلى عمر، بينما عمر يتيه قسوة وغلظة على المسلمين من حوله، لم ينجُ أحد من قبضته، لا جاريته ولا أبناء عمومته.

كان ابن الخَطَّاب مُخلِصًا لِمَا يؤمن به، ولم تكُن هناك ثغرة ينفذ منها النور إلى قلبه.

سِتّ سنوات منذ ظهور الإسلام وهو يعيش لوعة بسبب ما خلَّفَته دعوة محمَّد من انقسام وفُرقة داخل قُرَيش من جهة، وتحقير لآلهة كان يُخلِص في السجود لها من جهة أخرى.

يومًا ما استيقظ عمر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) على ضجَّة سببها أن حمزة عَمَّ الرَّسُول صفع أبا جهل خال عمر أمام الناس.

لم يكُن لوضع حدٍّ للمأساة التي يعيشها عمر وأهله بديل إلا قتل النَّبيّ.. الرجل الذي دعا النَّبيُّ ربَّه أن يُعِزّ به الإسلام يحمل سيفه باتجاه دار الأرقم ليُغلِق ملفَّ الإسلام تمامًا.

كان السيناريو الربانيَ للاستجابة لدعوة النَّبيّ يقتضي ترتيبًا، فالترتيب هو الحكمة، وكان من الحكمة أن يرقَّ قلب عمر حتى ينفتح في مَسَامِّه ما يسمح لدعوة النَّبيّ بأن تتحقق.

استوقفه أحدهم يسأله عن وجهته فأخبره، فقال له: أَوْلى بك أن تنظر إلى أهل بيتك يا عمر.

في الطريقَ إلى بيت فاطمة بنت الخَطَّاب شقيقته وزوجها سعيد بن زيد[1] كان شيء ما قد انكسر بداخل عمر، فإسلام أخته -من وجهة نظره- عار، وهو عار يجب البَتُّ فيه قبل القضاء على من يقف خلفه.

كان خباب بن الأرت يعلِّم فاطمة وسعيدًا بعض القرآن، سمعوا طرقة عمرَ فعَمَّ الفزع في الدار، اختبأ الأرت قائلًا: « لَإِنْ نجا سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخَطَّاب فلن ينجو خبَّاب ».

فتحت فاطمة الباب فدخل عمر كلُّه غضب.. فكانت المواجهة.

عرف عمر مِمَّا سمعه من خلف الباب ومن نظرة في عينَي أخته أنه يقف الآن في بيتٍ مُسلِمٍ.

---

[1]- انظر قصة زيد بن عمرو..أمة لوحده

هجم عمر على سعيد بن زيد يفتك به، تَدخَّلَت فاطمة تدافع عن أخيها فلطمها عمر لطمة قوية.. فأسالت خيطًا من الدماء على أحد جانبَي فم أخته.

تَعطَّل الوقت وثبت الجميع كُلٌّ في مكانه صامتًا..

خيط الدماء على وجه فاطمة كان يكسر في صمت القشرة القاسية التي تغلِّف قلب عمر.

عمر بالأساس شاعر وحكيم.

صحيح هو واحد من أقسى رجال قُرَيش، لكنها قسوة في الحَقّ، كبير بين قومه على صِغَر سِنِّه، ومؤتمَن على الأموال والأعراض والأسرار رغم أنه مُشرِك، كان الخام سليمًا تمامًا، بل نموذجيًّا، وإلا ما كان النَّبيّ ليدعو الله أن يُعِزَّ الإسلام به.

اختلَّ توازن عمر وهو يرى خيط الدماء، وهمَّ أن يمسحه، لكن فاطمة أشاحت بوجهها بعيدًا.

ذهب كل واحد إلى ركن من البيت، نظر عمر فوجد آيات القرآن في كتاب، انحنى ليلتقطه فمنعته أخته .

قالت له: لا يمسُّها إلا الطاهرون يا عمر، وانت على نجاسة المشركين.

بدأت الشروخ تضرب في قشرة قلبه بجنون، فكان أن توضأ عمر..

كان الوحيد تقريبًا الذي تَوَضَّأ قبل أن يدخل الإسلام .

وعندما قرأ عمر «طه» كان قد استسلم تمامًا .

فى طريق عمر إلى النبى – صلى الله عليه و سلم - لولا أن مر بشقيقته و لطمها ما كان يسير الآن وقد انكشف وجهه الحقيقى المختبئ تحت القسوة، متوضئًا، يعرف طه وقدره وحقيقة أمره، يشعر بدعاء النَّبيّ يظلِّله، يفكر كيف سيُعِزُّ الإسلام.

فما إن خرج من عند النَّبيّ مُسلِمًا حتى كان الدعاء قد استُجِيبَ كاملًا، فتوجه عمر إلى بيت خاله (الذي كان عمر قد خرج يقتل محمَّدًا بسبب الإهانة التي تَعَرَّض لها) فقال: جئت أخبرك أنِّي آمنت بالله وبرسوله محمَّد.

لا أحد في العالَم يستطيع أن يصف مشاعر أبي جهل في هذه اللحظة، ولا حتى أبو جهل نفسه.

كان سعيد بن زيد مفتاح إسلام عمر بن الخَطَّاب، مثلما كان عليّ بن أبي طالب مفتاح إسلام أبي ذَرّ الغفاريّ[٢]، وهكذا كان السيناريو.. بدأ من الخال وانتهى عنده، وكانت لحظة التحوُّل الكبرى مرهونة بذلك الخيط من الدماء.

إسلام عمر كان سببًا في تغيُّر موازين القوى بين قُرَيش والمسلمين، فمن يجرؤ الآن على معاداة عمر أو إيذاء مَن يخُصُّونه؟

علمت المسلمون في الحبشة، وبينهم رُقَيَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، بإسلام عمر.. فعرفوا أنه الإذن بالعودة إلى مكَّة...

(٥)

على مشارف مكَّة أدركوا أن الأخبار كاذبة وهم يسمعون صرخات المسلمين من تعذيب أهل قُرَيش، تَجَرَّأَت رُقَيَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) ودخلت مكَّة محتمية بالحرم واتجهت إلى بيتها، كانت رُقَيَّة في أشَدِّ الشوق إلى أُمِّها.. استقبلَتها فاطمة بالأحضان.. سألتها: «أين أمي؟»، فردَّت عليها دموع فاطمة.

٢- انظر قصة أبو ذَرٌ الغفاريّ.. المتوحد الثائر.

كان أن اتفقت عشائر قُرَيش على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامَّة، فلا بيع ولا شراء ولا نكاح، فكان أن عاد المسلمون إلى الحبشة من جديد.

في المرة الأولى كانوا أحد عشر رجلا وأربع نساء، ولكن في المرة الثانية كانوا أكثر من ثمانين رجلًا بنسائهم وأطفالهم.

عادت رُقَيَّة من جديد كأنها قد كُتِبَ عليها أن لا تستقر في مكان، لكن الاستقرار كله كان في صحبة زوجها عثمان.

علم النَّبيّ بقدوم إحدى المسلمات من الحبشة فسألها عن رُقَيَّة فقالت له إنها آخر مرة رأتها كانت تركب حمارًا وتسير به بينما عثمان يسير إلى جوارها، فدعا لهما.

وعندما حان وقت هجرة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانت العودة الثانية والأخيرة إلى مكَّة، ومنها إلى المدينة.

(٦)

في المدينة كان باب بيت النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجه باب بيت رُقَيَّة وعثمان.

كانت رُقَيَّة تشعر أن الله قد عوَّضها عن ألم زيجتها الأولى ومشَقَّة الهجرة والغربة وغُصَّة رحيل الأُمّ وهي على سفر، كان يعوِّضها في عثمان رضى الله عنه، كان رقيق القلب حلو المعشر لا يتعالى على مشاعره. كان قليل الكلام، شديد الحياء حتى قال عنه النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه رجل تستحيي منه الملائكة كما تستحيي من الله ورسوله.

بعد أن أنجبت رُقَيَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أسَرَّ لها عثمان بأن قلبه كان معلَّقًا بها منذ زمن بعيد، قال لها إن اليوم الذي عرف فيه أنها في طريقها إلى بيت زوجها (عتبة بن أبي لهب) كان يومًا عصيبًا، لولا أن كاهنةً كانت قريبة له طمأنته قائلة: « اتبع محمَّدًا لا تغتَلْك الأوثان »! لم يفهم يومها ماذا تقصد بالضبط، وعندما قالت له: «ستتزوج رُقَيَّةَ » شكّ في عقلها، إذ تنبأت بزواجه بواحدة لم يمرّ عليها ساعات في بيت زوجها.

حكى لها عثمان أنه خرج يومها هائمًا على وجهه، وعندما التقى أبا بكر قصّ عليه ما حدث، فقال له أبو بكر: « ويحك يا عثمان! إنك ما يَخْفَى عليك الحقُّ من الباطل »، فكان أن اجتمع بالنَّبيّ، وكان أن أسلم في ذات الليلة، وكان أن تَزَوَّج رُقَيَّةَ بعدها بشهور.

(٧)

بدأت الحياة تضحك لرُقَيَّة بقدوم ابنها عبد الله.. كان عبد الله فاكهة جَدِّه المحبَّبة.. وعوَّضها عن آلام الهجرات وفقدان الأُمّ... لكنها استيقظت يومًا على صوت صراخ عبد الله يشقّ سكون المنزل.. رأته يخرّ صريعًا بعد أن نقره ديك في عينيه وفي وجهه فصفًّاه من الدم فمات.

كبرت أحزان رُقَيَّة صاحبة الهجرتين.. وسقطت طريحة فراش المرض، وعندما حان موعد غزوة بدر اختار عثمان أن يمكث إلى جوار رُقَيَّة.. وشجعه الرَّسُول على قراره.

(٨)

لم تدُم سعادة سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بالانتصار في بدر طويلًا..

كان الحزن يخيِّم على بيت رُقَيَّة..

التقته فاطمة رضى الله عنها على الباب فطلب منها أن تصحبه إلى قبرها.

أمام قبرها وقف صامتًا..

أمَّا فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) فقد جلست أمام القبر تبكي.. فجلس الرَّسُول إلى جوارها على ركبتيه واحتضنها، ولم يدرِ كم من الوقت مرَّ عليهما وهي تبكي وهو يمسح دموعها بطرف ثوبه.

زيد بن عمرو

(أُمَّةٌ وَحْدَهُ)

(١)

كان زيد يشعر بغربة بين أهل قُرَيش، كان يتأمّل طبيعة حياتهم فتصيبه غُصَّة ما، كانت هذه الغُصّة تهزمه أحيانًا فينهار إلى جدار الكعبة متعلقًا بأستارها شاردًا باتجاه السماء، وكان أحيانًا يهزمها في مواقع عِدَّة.

كان زيد يمرُّ بالرجل يدفن ابنته على طريقة الجاهلية فيُهرَع باتجاهه: «سأُحيِي الموؤودة»، يقول زيد لنفسه، ثم يقول للرجل: «لا تقتلها وسأتكفل أنا بها، سآخذها لأربيها، وما إن تكبر سيكون لك مطلق الحرية في أن أعيدها إليك إذا رغبت، وإن شئت تركتَها في عهدتي وكفيتك أنا مؤونتها».

على هذا النهج أنقذ زيد بن عمرو عشرات البنات، بينهن من كبرت في ما بعد لتصير والدة أحد صحابة الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كانت كل أم طيبة من أمهات قُرَيش ترى في زيد بن عمرو فرصة جديدة لاستئناف حكم الإعدام الصادر بحقِّ بنتها الرضيعة، أما بقية الأمهات فكُنَّ يُوصِين الآباء قبل مشوار الوأد أن احذر أن يراك زيد بن عمرو.

(٢)

كانت قُرَيش تُقِيم احتفالًا سنويًا لأحد أصنامها في يوم عيد هذا الصنم، كان الجميع مأمورين بالحضور في صحن الكعبة للاحتفال، كان زيد يحضر بينهم على مضض، لكنه لم يكُن يخجل من مصارحة أهل قُرَيش: «هذه الشاة التي تذبحونها خلقها الله، وأنتم تذبحونها على اسم اللات والعُزَّى؟ هل سخَّرَت لها اللات الأمطار، أم أن العُزَّى أنبتت لها المراعي؟».

مرة بعد مرة أصبح وجود زيد ثقيلًا على المحتفلين .

شعر بذلك فصار ينتبذ ركنًا قصيًا على هامش الاحتفال.

كان يعتقد أنه الوحيد الذي يكره مسألة الأصنام ولا يستسيغها، إلى أن اقترب منه ثلاثة رجال قد فرُّوا من احتفال قُرَيش، كان يعرفهم، لكنه لم يكُن يعرف ما يدور في بالهم، خصوصًا بعد أن جلسوا إلى جواره صامتين لفترة طويلة:

ورقة بن نوفل.

وعُبَيد الله بن جحش حفيد عبد المطَّلب.

وعثمان بن الحويرث.

قال ورقة يجس نبض زيد بن عمرو: ما هذا الحجر الذي نطوف به وهو لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر؟!

فهم زيد ما تخبِّئه هذه الصحبة فقال: والله إن قومكم ليسوا على شيء، لقد فاتوا دين أبيهم إبراهيم.

كان هذا قبل ظهور النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بسنوات طويلة، وكانت هذه الصحبة تشعر أنها متورطة في باطلٍ ما مع قومها، واتفقوا على ضرورة إنهاء هذه المأساة.

قال زيد: يا قوم، التمسوا لأنفسكم دينًا، فلتتفرقوا في البلدان بحثًا عن الحنيفية دين إبراهيم.

وكان ما قاله زيد، وإن اختلف مصير كل واحد من هذه الصحبة.

(٣)

كان زيد أول من عرف طريق غار حراء .

كان يذهب إلى هناك بحثًا عن نفسه وهروبًا من أذى قُرَيش التي رأت فيه رجلًا يهدم ثوابتهم، ويحاول أن يُحدِث تغييرًا ما، وكعادة عَبَدة الأصنام كان التغيير بالنسبة إليهم هو الأذى بعينه.

قبل أن ينطلق زيد في البلاد بحثًا عن دين، لم يدَّخِرْ جهدًا في أن يجهر بما يؤمن به، فقاطع عبادة الأصنام تمامًا، وحثَّ قومه على مراجعة هذه المسألة، اعتزل الميتة والدم الذي يذبَح على الأوثان، وكافح وَأْد البنات، كان زيد يناضل دون رسالة أو وحي، كان يتلمَّس فطرة أبينا إبراهيم عليه السلام، فقطع عليه طريقَ الفطرةِ كلٌّ من استقرّ على أمر ورثه عمَّن سبقوه.

كان أول من قطع عليه الطريق الخَطَّاب بن نفيل والد سيدنا عمر بن الخَطَّاب.

كان الخَطَّاب أخًا غير شقيق لزيد، وكان أهل قُرَيش يستعينون به على أخيه لردعه، وازدادوا ضغطًا عليه عندما علموا أن زيدًا في طريقه إلى الخروج من مكَّة إلى بلاد أخرى طلبًا للحنيفية الصحيحة.

كان الخَطَّاب قاسيًا، ولم يجد زيد مكانًا ليختبئ فيه سوى غار حراء، كان يمكث فيه بالأيام وينزل منه سرًّا لدخول مكَّة، وكُلَّما علم أهل قُرَيش بوجوده استعانوا بالخَطَّاب فكان يؤذيه، واستمر الوضع طويلًا على هذه الحال إلى أن تَمَكَّن زيد من الخروج من مكَّة نهائيًّا قاصدًا بلاد الشام.

كانوا يقولون للخطّاب: «لماذا لا تقتله؟» فيصمت، ثم يقول: «لا أعرف ما الذي منعني».

بعدها بفترة جاء للحياة سعيد بن زيد.

بعدها بسنوات طويلة تَزَوَّج سعيد (ابن زيد بن عمرو) بفاطمة (بنت الخَطَّاب).

بعدها بفترة كان سعيد هو مفتاح دخول عمر بن الخَطَّاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) في الإسلام.

كان مقدَّرًا أن لا يقتله.

(٤)

في بلاد الشام استقرَّ مقام زيد بن عمرو عند راهب في صومعته، فحكى له عن ألم الغربة التي يعيشها بين قومه، وقال له إنه أيضًا لا يرتاح للديانتين السماويتين الموجودتين (اليهودية والمسيحية). .

فقال له الراهب: « يا زيد، إنك لَتطلب دينًا ما يوجد اليوم أحد يدين به، وهو دين أبيك إبراهيم، كان حنيفًا لم يكُن يهوديًا ولا

نصرانيًّا، كان يصلِّي ويسجد لهذا البيت الذي ببلادك، فالحَقْ ببلدك، فإن الله يبعث من قومك في بلدك مَنْ يأتي بدين إبراهيم الحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله ».

كانت البشارة واضحة، وارتاح لها قلب زيد فعاد إلى بلاده قويًّا بأمله في أن يلحق بهذا النَّبِيّ، كان يتلمسه في وجوه الكبار والأطفال وفي حكايات القادمين للطواف بالكعبة من قبائل بعيدة، وفي كتب اليهود والنصارى، في ما يراه بعينيه حقًّا وفي الأحلام.

ترك زيد زمام أمره لفطرته، كانت تغيب الشمس فيستقبل الكعبة ليصلِّي ركعة وسجدتين، ثم يقول: « هذه قِبلة إبراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرًا، ولا أصلِّي له، ولا آكل ما ذبح له، ولا أستقسم بالأزلام، وإنما أصلِّي لهذا البيت حتى أموت ».

كان أثر النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سابقًا على ظهوره، وكان أن أشرقت أنوار ما في صدر زيد بفعل الانتظار، كانوا يسألونه عن حاله فيصمت، ثم اطمأن قلبه لعامر بن ربيعة فقال له: « أنا أنتظر نبيًّا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطَّلب، ولا أراني أدركه، وأنا أُومِن به وأصدِّقه وأشهد أنه نبيّ، فإن طالت بك مُدَّة فرأيته فأقْرِئه منِّي السلام، وسأخبرك ما نعْتُه حتى لا يخفى عليك ».

قال عامر: « هَلُمَّ! »، قال: « هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينه حمرة، وخاتم النُّبُوَّة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يُخرِجه قومه منه، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره، فإياك أن تُخدَع عنه، فإني طُفتُ البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون: (هذا الدين وراءك)، وينعتونه مثل ما نعتُّه لك، ويقولون: لم يبقَ نبيٌّ غيره. يا عامر، فإن طال عمرك حتى التقيته فأقرئه مني السلام ».

كانت أسماء بنت أبي بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) تحكي عنه قائلة: لقد شاهدت زيد بن عمرو شيخًا كبيرًا ظَهرُه مُسنَد إلى ظهر الكعبة ويقول: «اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكنني لا أعلمه»، ثم يسجد طويلًا.

(٥)

هل كانت اختيارات صحبة زيد مماثلة ؟

أما ورقة بن نوفل ..

فقد ارتاح إلى المسيحية واستحكم فيها، واتَّبَع كُتُبَها من أهلها في كل مكان حتى صار عالِمًا من علماء أهل الكتاب. لحق ورقة بدعوة سيدنا النَّبيّ في بدايتها، وكانت البشارة على يده عندما أخبرته السيِّدة خديجة بما جرى في أول نزول للوحي على النَّبيّ فقال: «قُدُّوس قُدُّوس.. لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسي (يقصد جبريل عليه السلام)، وإنه لنَبِيٌّ هذه الأُمَّة »، ويقال: إنه مات على المسيحية قبل أن تبدأ الدعوة إلى الإسلام .

أما عبيد الله بن جحش ..

فقد ظلّ يترقب طريق الهداية حتى لحق بالرَّسُول فأسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، فلما وصل إلى هناك واطّلع على المسيحية تَنَصَّر، وظلّ يعيش هناك حتى مات مسيحيًّا .

أما عثمان بن الحويرث ..

فقد استقرّ به المقام في كنف ملك الروم، وارتاح إلى المسيحية وظلّ عليها وحَسُن مقامه ومنزله عند ملك الروم حتى مات هناك.

أما زيد فقد عاد إلى الشام من جديد إلى الراهب الذي زاره من

قبل كأنَّه يتعجل خبر ظهور النَّبيّ، فقال له الراهب: « عد إلى بلادك فالْحَقْ بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه ».

(٦)

كانت قُرَيش تعاني من آثار الاضطراب الفكري الذي بثَّه زيد في عقول شبابهم، ولم يستبشروا خيرًا بعودته من بلاد الشام، ففي كل مرة يعود إلى مكَّة أقوى من ذي قبل، فيستفز وجدان كثيرين يعبدون الأصنام على حرف، ويشيع أمر النَّبيّ المنتظر الذي سيقلب الموازين، ففكَّروا أن يتخلصوا منه.

في طريق عودته من الشام وهو يمنِّي نفسه بلقاء النَّبيّ الذي أتى زمانه وجد نفسه مُحَاطًا بوجوه ليست غريبة عنه، وقبل أن يتعرفها كانوا قد أعملوا فيه سيوفهم.

بينما زيد يلفظ أنفاسه الأخيرة على الطريق إلى مكَّة نظر إلى السماء قائلًا: « اللهم إن كنت حرمتني من هذا الخير فلا تحرم منه ابني سعيدًا ».

كان دعاء هذا الرجل الذي مهَّد الأرض أمام رسالة سيدنا محمَّد

مستجابًا، فكان سعيد بن زيد من أوائل المسلمين، وكان أن أصبح واحدًا من العشرة المبشَّرين بالجنة.

(٧)

في غزوة بدر غاب سعيد بن زيد عن المعركة، لأن النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان قد وكل إليه مهمة ما بعيدة عن الميدان، فلما عاد زيد ووجد النَّبيّ والمسلمين منتصرين بدا على وجهه بعض الضيق من غيابه عن هذا الشرف، فكَّر النَّبيّ في أن يُطيِّب خاطر سعيد، فأخذ النَّبيّ منه قوسه وضرب له سهمًا فأصبح كأنه قد شهد الغزوة.

ضحك سعيد، وكان يقف إلى جواره عمر بن الخَطَّاب، تبادلا النظر في صمت، فانتبه لهما النَّبيّ يسألهما عما بهما، فقالا: «أنستغفر لزيد بن عمرو؟ ».

صمت النَّبيّ ثم ابتسم قائلًا: « نَعَمْ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ ».

أبو ذَرٍّ الغفاريّ (رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ)

المتوحّد الثائر

(١)

كان المسلمون في طريقهم إلى تبوك، استشعر بعض منهم تَخَلُّف أشخاص بعينهم، كانوا يقولون: « يا رسول الله، تَخَلَّف فلان»، فيأمرهم النَّبيّ أن لا ينشغلوا بهذا الأمر وأن يدَعُوا كل شخص وشأنه، فإن كان في هذا الشخص خير فسيُلحِقُه الله بكم، وإن كان به غير ذلك فقد أراحكم الله منه..

انتهى الكلام في هذا الموضوع، إلا أن مكانة أبي ذَرٍّ الغفاري التي لا تخطئها عين فتحت مجالًا لدهشة أرغمت أحدهم على أن يقول: « يا رسول الله، لقد تخلف أبو ذَرٍّ ».

كانوا يتوقعون أن يصارحهم الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بسِرِّ غياب هذا الشخص تحديدًا، إلا أن الرَّسُول أعاد قوله عليهم: «دعوه، إن يكُ به خير فسيُلحِقُه الله بكم ».

في موضع آخَر بعيد كان أبو ذَرٍّ فوق ظهر بعيره الهزيل، وكان أبو ذَرٍّ يستحثُّه على السير أسرع قليلًا دون فائدة، فما كان منه إلا أن سحب فوق ظهره متاعه، ونزل من فوق ظهر البعير تاركًا إياه في الصحراء ليقطع الطريق باتجاه الرَّسُول مشيًا على قدميه حتى يلحق به.

كان الدرب مُوحِشًا، لكنه ذكَّر أبا ذَرٍّ بالأيام الخوالي.

(٢)

هل من قطع الطريق فائدة سوى جَنْي المال ؟

بدأ أبو ذَرٍّ حياته قاطعًا للطريق في سياق إرث مهني عائلي لقبيلة غفار التي كانت تتوسط طرق التجارة في الجزيرة العربية، لم يكُن أبو ذَرٍّ يقطع الطريق ليسرق أو ليقتل، كان الأمر أشبه بتحصيل رسوم المرور الآمن من هذا الطريق، الأمن مقابل بعض العطايا .

في إحدى المرات وبينما يجهز قائد قافلة قُرَشِيَّة رسوم المرور ليدفعها لأبي ذَرٍّ سأله الأخير عن الأحوال في مكَّة، فقال له الرجل: «توتُّرٌ ما يسود الأجواء هناك بعد أن ظهر نبي برسالة جديدة تدعو إلى التوحيد».

طلب أبو ذَرٍّ من شقيقه أن يسافر إلى مكَّة ليأتي بخبر صادق عن هذا النَّبِيّ، فسافر.

لكن ما الذي جعل أبا ذَرٍّ يهتمّ بالقصة؟

كان أبو ذَرٍّ قبل ذلك بسنوات ثلاث لا يصلّي إلا بجملة واحدة، «لا إله إلا الله »، يقوم عند شروق الشمس فيصلّي حتى يُؤذيه حرُّها،

في ما بعد سأله أبو بكر: « إلى أين كنت تتوجه في صلاتك؟»، قال: « لا أدري.. حيثما يوجِّهني الله كنت أصلِّي ».

عاد شقيقه من مكَّة فسألة أبو ذَرٍّ عن النَّبيّ، فأخبره عن أوصافه حتى ارتسمت صورته في ذهنه، فسأله عن رسالته، فقال: «هو رجل يأمر بالخير وينهى عن الشر».

لم تشفِ إجابة الشقيق فضول أبي ذَرٍّ...

فحمل متاعه وعصاه متوجهًا إلى مكَّة ليستطلع الأمر بنفسه.

(٣)

في الطريق إلى تبوك دفعت الشمس أبا ذَرٍّ إلى الاختباء قليلًا في ظِلّ تَلٍّ صغير حتى تهدأ فيعاود السير.. شعر بالعطش، ثم تَذكَّر أنه قد سبق له أن شرب من الماء ما يكفيه سنوات طويلة فانزاح عنه الظمأ.

(٤)

عندما وصل أبو ذَرٍّ إلى مكَّة خاف أن يسأل صراحة عن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

كان قد استمع إلى قصص العذاب الذي يطول كل من يفتح هذا الموضوع بين أهل مكَّة.

ظَلّ يطوف بالحرم بحثًا عن شخص ضعيف لا يقوى على إيذائه إذا سأله عن النَّبيّ الجديد، حتى وجد شخصًا نحيلًا فاقترب منه دون أن يعرف أن هذا النحيل كان هو الفخ الذي وضعَته قُرَيش للغرباء في صحن الحرم.

وقع أبو ذَرٍّ في الفَخّ بسهولة.

سأل النحيلَ: «أين الصابئ الذي تتحدثون عنه؟»، فصاح النحيل بكلمة السر: «الصابئ؟ الصابئ؟»، فاجتمع عليه القوم وأوسعوه ضربًا حتى تركوه صنمًا من دم لا يقوى على الحركة.

لملم أبو ذَرٍّ ما تبقى منه واتجه إلى بئر زمزم.

ظَلّ ماكثًا في رحابها أكثر من ثلاثين يومًا لا طعام له إلا ماؤها ..

يقول إنه لم يدخل جوفه خلال هذه المدة إلا ماء زمزم، حتى سمن وتدلى بطنه أمامه ولم يشعر قَطُّ بجوع.

(٥)

بلَّت الذِّكْرَى ريق أبي ذَرٍّ وهو في انتظار انكسار الشمس ليواصل طريقه باتجاه الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وارتاحت نفسه، بالضبط كما ارتاحت في أول لقاء بينهما.

(٦)

ظَلَّ أبو ذَرٌّ مختبئًا في حرم البئر ثلاثين يومًا يفكِّر ألف مرة قبل أن يسأل من جديد عن النَّبيّ، خوفًا من أن يُقتل قبل أن يلقاه.

كان عَلِيّ بْن أبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عين الدعوة في أنحاء مكَّة، كان دائم التجوال في أنحائها بحثًا عمَّن هم في مثل حال أبي ذَرٌّ، التقطه في أول مرة فمرَّ به صامتًا، في المرة الثانية قال له علِيٌّ بصوت خفيض: «أما آن للرجل أن يعرف مثواه بعد؟».

لم يلتقط أبو ذَرٌّ الرسالة في أول مرة، لكنه ظَلَّ منتبهًا حتى مرّ به علِيٌّ من جديد فكرر عليه السؤال، فقال أبو ذَرٌّ: «لا».

قال عَلِيّ: ما أمرك؟

قال أبو ذَرٍّ: إن كتمت علَيَّ أخبرك.

قال عَلِيّ: فإني أفعل.

قال أبو ذَرٍّ: سمعت عن أنه قد خرج هنا رجل يزعم أنه نَبِيّ، أرسلت أخي ليكلمه لكن أخي رجع دون أن يقدّم جملة مفيدة، فقررت أن أتقصَّى الأمر بنفسي.

قال عَلِيّ: أتبعني.

كانت الخطة واضحة.

قال له عَلِيّ بْن أبِي طَالِبٍ إنه سيسبقه بخطوات، فإذا مرّ الأمر بسلام دون أن يقطع طريقهم أحد الأكمنة التي نصبتها قُرَيش فلا بأس، لكن إذا استشعر علِيٌّ خطرًا ما فسيتوقف ويستند إلى الحائط كأنه يُصلِح نعله، وعلى أبي ذَرٍّ في هذه الحالة أن يستمرَّ في السير إلى الأبد.

يبدو أن هذه الخطة لم تنجح.

بعدها بأيام، وكان القمر قد اكتمل بينما أهل مكَّة جميعهم يَغُطُّون في النوم، كان أبو ذَرٍّ مرابطًا إلى جوار الكعبة، فاقتربت امرأتان

تطوفان وتبتهلان إلى صنمَي «إساف» و«نائلة»، سمعهما أبو ذَرٍّ فطلب من المرأتين ساخرًا أن تزوِّجا الصنمين كليهما للآخَر.

لم تستجب المرأتان لسخرية أبي ذَرٍّ، فتمادى شارحًا لهما كيف أن زواج إساف ونائلة سيكون ممتعًا، خصوصًا أن «فرجيهما» من الخشب. هنا حدث الانهيار وبدأت المرأتان في الصياح استنجادًا بأي من أهل قُرَيش لتأديب هذا الرجل.

في تلك اللحظة كان رجلان يهبطان من الجبل في اتجاه الحرم، فما كان من أبي ذَرٍّ إلا أن اختبأ بعيدًا.

(٧)

في منتصف الطريق إلى تبوك تَوَقَّف المسلمون في صحبة الرَّسُول ونزلوا إحدى المنازل ليستريحوا.

لم يُخْفِ المسلمون بينهم قلقهم بخصوص غياب أبي ذَرٍّ، كانوا يعرفون أنه متمرِّد، ثائر، لا يعرف الدبلوماسية، جريء بما يكفي لأن يقول عنه سيدنا عَلِيّ بْن أبِي طَالِبٍ في ما بعد: « لم يبقَ اليوم أحد لا يبالي في الله لومة لائم غير أبي ذَرٍّ، ولا نفسي »، ثم ضرب بيده على صدره ليؤكد المسألة: «ولا نفسي».

لكن في الوقت نفسه يعرفون مكانة أبي ذَرٍّ عند الرَّسُول خير معرفة. كيف لا وهم الذين شاهدوه يمتطي الحمار خلف الرَّسُول، وهم الذين شاهدوا الرَّسُول يبتدئ أبا ذَرٍّ بالكلام إذا حضر ويتفقده إذا غاب، وهم الذين سمعوها صريحة من فم الرَّسُول (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم): « ما تُقِلُّ الغبراء ولا تُظِلُّ الخضراء على ذي لهجة أصدق وأوفى من أبي ذَرٍّ شبيه عيسى ابن مريم »؟

فما الأمر إذًا؟

(٨)

بعد أن سخر الغفاري من المرأتين وأصنامهما كان رجلان يهبطان من الجبل في اتجاه الحرم، فما كان من أبي ذَرٍّ إلا أن اختبأ بعيدًا

ورأى الرجلين يقتربان من ضحيتَيهما، سمع أحد الرجلين يسأل عن القصة فأخبرته واحدة منهما بالقصة ثم انصرفتا.

لمح أبو ذَرٍّ الرجلين يستقبلان الحجر الأسود ثم يطوفان بالكعبة ثم شرعا في الصلاة.

اقترب أبو ذَرٍّ منهما وتأمل وجه أحدهما في ضوء القمر فعرف أنه النَّبِيّ.

انتظره حتى أنهى صلاته ثم اقترب منه فكان أول شخص يحيِّيه بتحية الإسلام: «السلام عليكم»، قال الرَّسُول: «وعليك رحمة الله»، قرأ الرَّسُول في الشخص الواقف أمامه مسلمًا جديدًا يتلمَّس الطريق.

سأله الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): مِمَّن أنت؟

قال أبو ذَرٍّ: من غفار.

فضرب الرَّسُول جبهته بيده.. عرف أبو ذَرٍّ أن الرَّسُول لا يرتاح لانتماء هذا الرجل إلى قبيلة قُطَّاع الطرق.

تَأَكَّد من ذلك عندما قال الرَّسُول متعجبًا: «إن الله يهدي من يشاء».

حكى أبو ذَرٍّ قصته كاملة للنَّبِيّ.

طلب منه النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قبل أي شيء أن يأكل بعد ثلاثين يومًا من الماء، فتَكفَّل أبو بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) بضيافته في تلك الليلة.

شَهَرَ أبو ذَرٍّ إسلامه بين يدَي النَّبِيّ، ثم طلب منه أن يكتم الأمر: «يا أبا ذَرٍّ، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإنْ بلغك ظهورنا فأقبِلْ».

خرج أبو ذَرٍّ من عند الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) متجهًا إلى صحن المسجد الحرام وقُرَيش فيه، ثم هتف بالشهادتين... «قوموا إلى هذا الصابئ »، قالت قُرَيش، فضربوه أشدَّ مِمَّا سبق، إلى أن ظهر العباس في الصورة قائلًا: تقتلون رجلًا من قبيلة غفار، وتجارتكم وأموالكم تمرُّ بأرضها؟! .

فخاف أهل قُرَيش من انتقامٍ وحشيٍّ، خافوا على مستقبلهم، فكَفُّوا أيديَهم عنه.

بخلاف جَنْي المال، كانت هذه هي الفائدة الثانية من قَطْع الطريق، فقد أنقذت المهنة أبا ذَرٍّ من الموت، وكتبت له عمرًا جديدًا.

كانت الفائدة الأولى عندما علم بأمر النَّبيّ وهو يقطع الطريق، فترك كلَّ ما في يديه بحثًا عنه حتى أصبح سادس المسلمين.

(٩)

انكسرت الشمس قليلًا فقام أبو ذَرٍّ ليواصل المسير حتى يلحق بالنَّبيّ (صَلَّى اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ) والمسلمين، كان خلال المسير يتأمل حياته كقاطع طريق تائب وأثر النبى فيها .

«كنتُ فظًّا».. قال أبو ذرٍّ، وتَذكَّر عندما سبَّ بلال بن رباح (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) وعيَّره بأمه قائلًا: «يا ابن السوداء».

أما سبِّي لبلال فقد غيَّر طريقة حياتي إلى الأبد؛ قال لي الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد أن عرف القصة: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وضعتُ رأسي على الأرض قائلًا لبلال: « ضع قدمك على رقبتي»، أستحثه أن يفعل ذلك.

وبلال يقول: « سامحتك، غفر الله لك »، ولم أسترِحْ إلا بعد أن رأيت نظرة رضا في عينَي النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتبعها بقوله: «فمن كان أخوه تحت يده فليُطعِمه مِمَّا يأكل، وليُلبِسه مِمَّا يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم ».

من يومها أقسمت بالله أن لا ألبس إلا الثوب نفسه الذي يلبسه خادمي، ولا أطعم نفسي إلا مِمَّا أطعمه، صار هذا النوع من الناس هو قضيتي، وصرت نصيرًا لهم في كل موضع.

كنتُ طالبَ دنيا، وطلبت من الرَّسُول أن يولِّيني مسؤوليةً أو قيادةً ما، لكنني لم أكُن أعلم أن هلاكي في هذه الأمنية، قال لي النبي:

« يا أبا ذرّ، إني أراك ضعيفًا، وإني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيم ».

زهدتُ الإمارة بعد أن قال لي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنّك ضعيف، وإنّها أمانةٌ، وإنّها يومَ القيامة خِزْيٌ وندامة إلا مَن أخذها بحقِّها وأدّى الذي عليه فيها ».

ظلّ أبو ذَرٍّ بعدها متعبِّدًا زاهدًا، قيل له بعد سنين: ألا تتخذ أرضًا كما اتخذ أقرانك؟ قال: وما أصنع بأن أكون أميرًا، وإنما يكفيني كل يوم شربة من ماء أو لبن، وفي الجمعة قَفِيزٌ من قمح.

نذر في حضرة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نذرًا ظلّ وفيًّا له إلى أن مات.. « كان قوتي على عهد رسول الله صاعًا من التمر، فلست بزائدٍ عليه حتى ألقى الله تعالى »، ذلك أنه سمع قول النبي: « أَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ تَرَكْتُهُ فِيهَا ».

كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرف حرارة دماء أبي ذَرٍّ، فكان يقول له كأنه يوصيه للأيام القادمة: « اصبر حتى تلقاني ».

وكان طلب النَّبيّ منه واضحًا بأن يسمع ويطيع.

كان أبو ذَرٍّ يتذكَّر، وفي الوقت نفسه يفكِّر هل سيلحق بجيش المسلمين الذي سبقه على هذا الطريق أم لا، ثم اطمأن للأمر كله أيًّا كان المصير.. قبل ذلك بسنوات كان قد قال للنبي: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنت مع مَن أحببت يا أبا ذر.

هو معهم إذن.

(١٠)

بينما عثمان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يتولى مسؤولية الخلافة كان أبو ذَرٍّ في الشام يقيم ويراقب فوارق تنمو وتكبر بين رجال الحكم وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، وبين عموم المسلمين، بخاصَّةٍ بعد أن تدفقت الأموال بعد الفتح من مصر وبلاد الفرس، فأثْرَت نخبة من المسلمين وبقي كثيرون على حالهم.

اختار أبو ذَرٍّ أن يثور للفقراء فالتفُّوا حوله، كان يسعى طول الوقت لجذب الأنظار إليهم، تَحَوَّلَت كلماته إلى شعارات تتردد في تجمعاتهم.

كان أبو ذَرٍّ يقول: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج شاهرًا سيفه على الناس».

أثارت الجملة حفيظة سكان القصور واعتبروها تهديدًا، فأرسلوا إليه العطايا والأموال، لكنه انتصر للفقراء من جديد.

قال أبو ذَرٍّ: «لا حاجة لي في دنياكم».

ثم زادهم من الشعر بيتًا فقال: «إذا سافر الفقر إلى مكانٍ ما قال الكفر خذني معك».

كان أبو ذَرٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يحمِّل الكبار مسؤولية أن يفقد الفقراء دنياهم ودينهم، فأرسل معاوية إلى عثمان رسالة يقول فيها: «إن أبا ذَرٍّ قد أفسد الناس في الشام»، فطلب إليه أن يقابله ويناقشه.

دخل أبو ذَرٍّ على معاوية قائلًا: أذكِّرك بقول الله «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب.

قال أبو ذَرٍّ: نزلت فيهم وفينا.

استرجع أبو ذَرٍّ مهاراته القديمة في قطع الطريق، فشعر معاوية أنه لا منفذ للهروب من مواجهة هذا الرجل، فأرسل يجدِّد الشكوى إلى عثمان، فطلب عثمان أن يقابله بنفسه.

(١١)

بينما يتأهَّب المسلمون للرحيل عن محطة راحتهم باتجاه تبوك، نظر أحدهم فرأى رجلًا قادمًا من بعيد على قدميه.

قال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق.

قال النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): « كن أبا ذر ».

كانت ملامح الرجل تتضح ببطء كلَّما اقترب من المسلمين إلى أن صاح أحدهم فرحًا: «هو واللهِ أبو ذَرٍّ».

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « رحم الله أبا ذَرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعَث وحده ».

(١٢)

في الطريق إلى عثمان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) كان أبو ذَرٍّ يعيد على نفسه وصيَّة النَّبيّ له: «اسمع وأطِعْ».

واسترجع نصيحة النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بالصبر في سياقها، كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سأله عن ردّ فعله إذا وجد أمراءَ يستأثرون بالخير، فقال أبو ذَرٍّ: « إذًا والذي بعثك بالحقّ

أضرب بسيفي حتى ألحق به». فقال: «أفلا أدُلّك على ما هو خير من ذلك؟ اصْبِرْ حتى تلقاني».

في المدينة وجد أبو ذَرٍّ صدى لدعوته الثورية، فالتف حوله الفقراء من جديد، وشعر بحجم المسؤولية الملقاة فوق عاتقه بينما يدخل على خليفة المسلمين.

تناجى عثمان وأبو ذَرٍّ حتى ارتفعت أصواتهما، ثم خرج أبو ذَرٍّ على الناس مبتسمًا، فسألوه: مالك ولأمير المؤمنين؟ قال: « سامع مُطِيع».

كان عثمان رضى الله عنه قد طلب منه أن يبقى إلى جواره على أن يُجزِل له العطاء، إلا أن أبا ذَرٍّ آثر أن يرحل بعيدًا وحيدًا، فطلب من عثمان أن يأذن له بالرحيل إلى «الربذة» في شمالِيّ العراق، فأذن له.

لولا وصيَّة النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسمع والطاعة ربما تَغَيَّر الأمر.

التزم أبو ذَرٍّ بالوصيَّة بينما يتصاعد الضغط عليه.

عندما استقر في العراق بدأت تزوره وفود كثيرة طالبة منه أن يحمل راية الثورة على عثمان بن عفان رضى الله عنه، قالوا له: « فعل بك الخليفة كذا وكذا، وإذا أردت نمدُّك بالرجال ما شئت ».

كان أثر النّبيّ (صلّى الله عليه و سلّم) حاضرا عندما رأى أبو ذرٌ وصيَّة النَّبيّ في كفة و الفتنة في كفة أخرى، فقال للناس: « والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت أن ذلك خيرٌ لي، ولو سيّرني ما بين الأفق إلى الأفق لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت أن ذلك خير لي، ولو ردَّني إلى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت، ورأيت أن ذلك خيرٌ لي ».

انقطع أبو ذَرٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عن الناس، لكن بقي يضيِّف من يزوره بالنصيحة.

(١٣)

« أوصيك بحب المساكين وأن تدنو منهم..

وأن تنظر إلى من هو دونك، ولا تنظر إلى من هو فوقك..

ولا تسأل أحدًا شيئًا..

وصِلْ رحمك وإن أدبرت..

وقل الحق وإن كان مُرًّا..

ولا تخَفْ في الله لومة لائم..

وما تكنزه هو جمر عليك حتى تفرغه في سبيل الله..

والمال درهمان، واحد تنفقه على عيالك، والثاني تقدمه لآخرتك، الدرهم الثالث يضرك ولا ينفعك..

وأكثِرْ من لا حول ولا قوة إلا بالله فهي كنز »...

قال أبو ذَرٍّ...

(١٤)

ماتت ابنته ثم ابنه، وبقي في الربذة حيث لا شيء سوى خيمته وزوجة عجوز.

كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط دموع زوجته وغلامه.

سألها عمَّا يبكيها، فأخبرته كم يشقّ عليها أن يموت وحيدًا « في أرض مقطوعة وليس لدينا ثوب يسَعْك كفنًا ».

قال أبو ذَرٍّ: « إذا مِتُّ، فاغسلاني وكفّناني، وضعاني على الطريق، فأول ركب يمرون بكما فقولا: هذا أبو ذَرٍّ ».

فلما مات فعلا ما أمر به.

بعد قليل مَرّ عبد الله بن مسعود مع جماعة من أهل الكوفة، رأى المشهد فقال: ما هذا؟

قال الغلام: هذا أبو ذَرٍّ صاحب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فأعينونا على دفنه.

صلَّى عليه ابن مسعود ودفنه، ثم وقف أمام قبره يبكي قائلًا: صدقتَ يا رسول الله.. مشى وحده.. ومات وحده.

أُمّ كُلْثوم

(رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا)

(١)

يوم وفاة أُمّ كُلْثوم.. جلس سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمام غرفة الغسل يوجِّه مِن خلف الباب النسوةَ اللاتي يغسِّلنها، طلب منهن أن يغسِّلنها ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا بماء وشيء من الكافور، وطلب أن يبدأن بميامنها ومواضع السجود منها، وما إن فرغن حتى مدّ يده وناولهن الكفن الذي كان يحمله.

وواراها الثرى إلى جوار رفات شقيقتها رُقَيَّة، ثم وقف أمام القبر بدموعه يحمد الله على ما أعطى وما أخذ.

(٢).

طلَّق عُتَيْبةُ بن أبو لهب ابنةَ الرَّسُول أُمَّ كُلْثوم بعد أن شَهَرَ رسالتَه.

ذهب عُتَيْبة إلى سيدنا النَّبيّ قائلًا: « كفرتَ بدينك وفارقتَ ابنتك، لا تحبني ولا أحبك »، ثم دنا من الرَّسُول وشَدَّه من قميصه فمزَّقه.

قال له سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): « اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك »، فأصابه الوجوم .

كان أبو طالب حاضرًا فقال لعُتَيْبة: « يا عُتَيْبة، لقد كنت في غِنًى عن هذه الدعوة ».

(٣)

عادت أُمّ كُلْثوم (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) إلى بيت أبيها في أصعب لحظات حياته.

كانت تستقبله يوميًّا وعلى جسده ندوب المعركة وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كانت تلقيه عليه قُرَيش من قاذورات.

ذات يوم دخل إلى البيت بعد أن نثر فوق رأسه الشريف أحدُ المشركين ترابًا، فأقبلت أُمّ كُلْثوم تغسل عنه التراب وهي تبكي فقال لها سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تبكي يا بنية؛ إن الله مانعٌ أباك».

عانت الحصارَ والجوعَ الذي فرضته قُرَيش بقسوة وضراوة على المسلمين.

يقول سعد بن أبي وقاص عن هذه الأيام: «لقد بلغ بي الجوع أني جُعْتُ حتى وطِئْتُ ذات ليلة على شيء رَطْب فوضعته في فمى وبلعته وما أدرى ما هو إلى الآن».

كانت أيامًا صعبة..

حملَت فيها أمّ كُلْثوم منفردة هَمّ أمّها و أبيها و فاطمة أختها الطفلة، كانت رُقَيَة في الحبشة وزينب في بيت زوجها، أمّا أُمّ كُلْثوم فقد كانت تتأمَّل أُمَّها بحزن شديد، وقد مرضت وتَقدَّمَت بها السِّنُّ إلى أن ماتت السيِّدة خديجة بين أحضانها، فعصف الحزن بكل أركان البيت. شهِدَت أباها وهو يدفن أُمَّها بنفسه ويعود إلى بيته محزونًا يتلمَّس شعوره باليتم من جديد.

(٤)

هاجر النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وبقيَت أُمّ كُلْثوم وفاطمة في المدينة إلى أن أرسل زيدَ بْن حارثة ليأتي بهما.

في المدينة عادت إلى أُمّ كُلْثوم رُوحُها وهي ترى أباها يجلس إلى جوارها ويستقبلان معًا رُقَيَّةَ بعد عودتها من الحبشة، كان اللقاء مُوجِعًا بقدر ما كان مُفرِحًا، اجتمع شمل الأسرة، ولكن في غياب جوهرتها.. الأُمّ.

ثم انفرط العِقْد من جديد برحيل رُقَيَّة.

(٥)

بعد أن تُوُفِّيَت السيِّدة رُقيَّة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) حزن سيدنا عثمان حزنًا شديدًا، وكان دائم البكاء عليها.

أمَّا عمر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) فقد أزعجه كثيرًا حزن ابنته حَفْصة بعد أن مات زوجها حصن بن حذافة.

فكَّر سيدنا عمر رضى الله عنه أن يداوي الجريحين، فعرض على عثمان أن يتزوج حَفْصة، لكن سيدنا عثمان رفض، فثار عمر وذهب إلى رسول الله شاكيًا مِمَّا حدث، فقال له سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يتزوَّج حَفْصةَ مَن هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانَ من هو خير من حَفْصة ».

أما سيدنا عثمان فقد تَزَوَّج بمن هي خير من حَفْصة، تَزَوَّج أمَّ كُلْثوم، قال له سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد أن رآه يبكي رُقَيَّة: « إن الله يأمرني أن أزوِّجك أختها، والذي نفسي بيده لو أن عندي مئة بنت يمُتْن واحدةً بعد واحدةٍ زَوَّجتُك أخرى حتى لا يبقى بعد المئة شيء».

قبل أن تدخل أمّ كُلْثوم (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) دارًا كانت أختها تسكنها، سالت دموعها حزنًا على رفيقة الطفولة ورفيقةِ وجعٍ أن تكون حماتهما المشترَكة يومًا ما هي أُمُّ جميلٍ حمَّالةُ الحطب.

كانت أُمُّ كُلْثوم تتابع زوجها بكثير من الفخر، كان لا يدَّخر أمواله لخدمة المسلمين، اشترى لهم بئرًا كان صاحبها اليهودي حجبها عنهم، وجهَّز جيش المسلمين على نفقته، وكانت لا تستطيع أن تقاوم دموعها،كلَّما رأت أباها يأتمن زوجها على الوحي.. يُملِيه فيكتب.

كانت أُمّ كُلْثوم لا يُؤنِسُها في الحياة شيء قدر طيف أختها رُقَيَّة في بيت عثمان، كانت تتنسَّم حُضورَها في كل ركن، كانت أُمّ كُلْثوم مسكونة بشقيقتها التي شاركتها بدلًا من المنزل ثلاثة... إلى أن شاركتها الثرى نفسه بعد ست سنوات.

(٦)

تَزَوَّج سيدنا عثمان رضى الله عنه مرتين بعد ذلك، لكنه لم يتزوج بمن هي خير من أُمّ كُلْثوم رضى الله عنها .

أمَّا حَفْصةُ فقد تَزَوَّجَت مَن هو خير من سيدنا عثمان.. تَزَوَّجت سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٧)

ذهب عُتَيْبة إلى سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلًا: «كفرتَ بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك»، ثم دنا من الرَّسُول وشدَّه من قميصه فمزقه...

بعدها بأيام خرج عُتَيْبة نحو الشام تاجرًا، وعندما وصل الركب إلى مشارف الشام ليلًا افترشوا مكانًا للنوم.. وهناك استجاب الله دعوة سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

استيقظ عُتَيبة من نومه وقد اقترب منه الكلب بعد أن تجاوز كل أفراد الركب، نظر إلى عينيه فقال عُتَيْبة: أيقتلني الآن محمَّد وهو في مكَّة وأنا في الشام؟!

كان هذا آخِرَ ما قاله.

فاطِمةُ

(رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)

(١)

قبل ظهور الإسلام كانت سيدة تطوف حول الكعبة حاملةً مِبخَرةً كبيرة، فكان أن سقطت إحدى الجمرات فأمسكت النار في كسوة الكعبة وفي أخشابها فأصابها دمار عظيم، وبينما قُرَيش تفكِّر في ما يجب فعله هجم السيل على مكَّة، وكانت الكعبة على حالتها هذه لا تتحمل قوته فتَهَدَّمَت.

عندما بدأت قُرَيش تُعِيد بناءها اكتشفت أن ما ينقصهم بشدةٍ هو الأخشاب.

في الوقت نفسه وصل إليهم خبر يقول إن سفينة رومانية محمَّلة بشحنة من الأخشاب قد جنحت في البحر أمام جَدَّة، وعرفوا أن صاحبها يريد أن يتخلص من هذه الحمولة، فسافر إلى هناك وفد من شباب قُرَيش ورجعوا بالأخشاب وبـ«نجَّار» مصري اسمه «باخوم»، كان على السفينة وتشاءم من الرجوع بحرًا.

شارك باخوم في البناء واستفادوا بخبرته في النجارة والهندسة، وشهد معهم خلافهم على من يضع الحجر الأسود مكانه، وشهِدَ رسولَ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو يحلّ هذه المشكلة.

في أثناء البناء اقترح عليهم باخوم عمل سقف للكعبة ليحميها من المطر، واقترح رفع باب الكعبة عن الأرض عدة درجات حتى لا تدخل إليها مياه السيول. استحسنت قُرَيش الكلام فكان ما اقترحه، وعاش بعدها باخوم بينهم يشيد منازل أهل مكَّة حتى مات.

قبل ذلك بفترة وبينما يقترب العمل في الكعبة من التمام.. وُلِدَت فاطمة.

(٢)

الطفلة النحيلة ذات السنوات الخمس كانت آخر العنقود، كان مشهدًا مألوفًا في نواحي مكَّة أن تُرَى فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) تسير ممسكة بذيل ثوب أبيها عندما يمرُّ بأهله عقِبَ الظهيرة.

لسبب غير معروف لم يكُن اللعب مع أقرانها يستهويها، ولكن بعد أشهُر قليلة، وبعد أن جهر النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بدعوته، كانت العزلة إجبارية، لكن فاطمة كانت قد تَمَرَّنَت عليها وقت أن كانت اختيارية.

لم تتخلَّ فاطمة عن ثوب أبيها، وكان هذا منبع ألمها الذي يصعب بأي منطق أن تتحمَّله طفلة في سِنِّها.

طفلة تسير مع أبيها فيوقفه نفر من الرجال يتقدم أحدهم فيمسك بمجمع رداء النَّبيّ ، رجل غريب يفرد قبضته ثم يلمُّها بثوب الأب ضاغطًا على صدره بطريقة مُهينة، يُسمِعُه كلَّ ما أوتِيَ من لغة السخرية: «أنت الذي تقول كذا وكذا؟»، يَثبُت الأب ويقول: «نعم»، بينما فاطمة تشدُّه من ذيل ثوبه بعيدًا حتى يتحرَّر من قبضة الرجل الغريب.

وفي اللحظة التي بدأت فاطمة رضى الله عنها تنهار فيها، ومع أول دموع تختبرها في حياتها، اختلط فيها حب الأب بالإشفاق عليه، في هذه اللحظة كان أبو بكر رضى الله عنه يتقدم ليحرِّره: « أتقتلون رجلا أن يقول رَبِّيَ الله؟ ».

كان لا بد لهذا الموقف أن يضع نهاية لإمساك فاطمة بذيل ثوب أبيها كلَّما خرج إلى الناس، إلا أنها أيقنت أنها البداية.

كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجدًا في الحرم، وكانت فاطمة تقف على بُعد خطوة منه كأنها تحرسه، تنقل البصر بين أبيها والسماء حيث اللهُ الذي يسجد له أبوها، كانت المسافة سؤالًا أكبر من قدراتها الذهنية كطفلة، لكنها كانت مليئة بما يكفي من النور لأن يجعلها تقف بثبات لا تعرف مصدره.

بينما الأب ساجد اقترب منه جَمْع من المشركين ثم ألقى عليه أحدهم أمعاء شاة مذبوحة، لم يقطع النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سجدته وتعالت الضحكات، بينما فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) تمرُّ من بين سيقان الكبار الذين أحاطوا بأبيها ثم تنحني على ظهره لتلتقط أمعاء الشاة ثم تلقيها في وجوههم! سيطرت الدهشة على الجميع، حينئذ قام النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سجدته يدعو: « اللهم عليك الملأ من قُرَيش »..

كانوا يعرفون أنهم يقفون في مكانٍ الدعاءُ فيه مستجاب، وعلى الرغم من أنهم لا يؤمنون بمن يدعوه محمَّد فقد انزعجوا فانصرفوا شتاتًا، ثم أكمل النَّبيّ صلاته في حراسة فاطمة، كانت تتابعه بعينيها الصغيرتين بينما تتشمَّم كلَّ قليلٍ رائحةَ يدها التي حملت بها أمعاء الشاة.

في طريق العودة إلى بيتهما كانت تمسك ذيل ثوب أبيها باليد الأخرى.

(٣)

ماتت الأُمّ خديجة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) وهاجر النَّبيّ إلى المدينة بينما فاطمة وأُمّ كُلْثوم في مكَّةَ تنتظران المجهول.

على مشارف المدينة وقف أهلها في انتظار النَّبيّ (صلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وصاحبه، كان معظمهم -إن لم يكُن جميعهم- لم يرَوُا النَّبيّ من قبل، وعندما اقترب من بعيد رجلان تساءلوا في ما بينهم: أيُّهما محمَّد؟

على بعد خطوات منهم كانت الشمس تستعرض قسوة أشعتها، فخلع أبو بكر عباءته ليظلِّل بها النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هنا فقط عرفوا أيُّهما محمَّد.

بنى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتًا ثم أرسل مَن يُحضِر فاطمةَ وأُمَّ كُلْثوم.

(٤)

في طريق الهجرة إلى المدينة كانت فاطمة رضى الله عنها طفلة نحيلة الجسد ضعيفة البِنْيَة، أهلك صِحَّتَها الحصار والأذى الذي كان والدها يتعرَّض له أمام عينيها.

بعد أن خرجت من مكَّةَ تَرَبَّصَ بها أحد المشركين، الحويرث القُرَشِيّ، فضرب بعيرها فسقطت من فوقه، وأخذ البعيرَ وتركها في غياهب الصحراء.

شقَّت فاطمة طريقها إلى المدينة سيرًا على الأقدام، وما إن

وصلت حتى خرَّت ساقطة بين يدَي أبيها وابن عمِّها علِيّ، وبعد أيام طويلة استعادت بصعوبة قدرتها على الوقوف مجدَّدًا.. صلَّت وفوَّضَت أمرها في الحويرث القُرَشِيّ إلى الله.

(٥)

كانت فاطمة تقترب من سِنّ الزواج، لكن الروايات كلها تقول إن نفورًا بداخلها تجاه هذا الأمر عطَّله قليلًا، كان نفورًا سببه وضع أختها الكبرى زينب، وما قاسته رُقَيَّة وأُمّ كُلْثوم في بيت أم جميل زوجة أبي لهب قبل طلاقهما.

تَفَرَّغَت فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) لخدمة أبيها وتفانت في رعاية أموره كلها والاهتمام بكل شؤونه إلى أن منحها النَّبيّ لقب « أُمّ أبيها».

كانت فاطمة أُمَّ أبيها منذ كانت سنُّها خمس سنوات، ولم تكُن أُمَّه في حدود المنزل فقط، بل في ميدان الحرب أيضًا.

في غزوة أُحُدٍ كانت إصابة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، كان ينزف بين أصحابه لا يملكون من الأمر شيئًا سوى صب الماء على الجُرح، رأت فاطمة رضى الله عنها أن الماء يزيد النزيف كثرة،

تلفَّتَت حولها، وبفطرة الأُمّ اقتربت من حصيرة يفترشها الجرحى ثم أخذت قطعة منها فأحرقتها حتى صارت رمادًا. صارت تجفف جُرحَ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرماد إلى أن تَوَقَّف الدم تمامًا.

كانت أُمَّه حتى بعد أن تَزَوَّج سَوْدَة بنت زَمْعَة، كانت فاطمة تعرف أنه تزوجها جَبْرًا لخاطرها وعزاءً لها عن زوجها السكران بن عمرو الذي ما إن عاد من الحبشة حتى مات تاركًا أرملةً مُسِنَّةً، كانت تعرف أن زواج أبيها بهذه النية لن يخلعها من مكانها، وأنها ستظلُّ الأُولَى في حياته، أو على الأقل الثانية ما دامت خديجة لا تزال تشغل مكانتها في قلب الأب رغم رحيلها.

إلا أن الأمور تغيرت بقدوم عائشة رضى الله عنها... كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خطبها قبل الهجرة، أي إن الأمر كان يخلو من أي مفاجأة، لكن بقدوم عائشة إلى المنزل أدركت فاطمة أنها المرأة التي ستقدر على ملء الفراغ التي تركته خديجة.

كان الأمر ثقيلًا عليها بعض الشيء، إلا أنه لم يقُدْها إلى أي تَصَرُّف أحمق، تقول عائشة رضى الله عنها : « ما رأيت قط أحدًا أفضل من فاطمة غير أبيها ».

دعت فاطمة الله أن يُلهِمَها الثبات، أتمَّت صلاتها ودعاءها ودخلت لتنام، قبل أن تغفل عيناها تَذَكَّرَت الحكاية التي رواها لها البعض والتي جرت في المدينة قبل وصولها من مكَّة، كان النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد وقف بين أصحابه قائلًا: « تَآخَوْا في الله أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ ».

فتآخى عمر بن الخَطَّاب مع عتبان بن مالك، وتآخى أبو عبيدة بن الجراح مع سعيد بن معاذ، وتآخى عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت.

ثم أخذ النَّبيّ بيَدِ عليّ بن أبي طالب وقال: هذا أخي.

(٦)

طلب أبو بكر ثم عمر رضى الله عنهما يد فاطمة، لكن سيدنا النَّبيّ ردَّهما برفق.

كان علِيّ بن أبي طالب رضى الله عنه يحمل لابنة عمّه محبة في قلبه يكتمها ولا يُفصِح عنها، تَرَدَّد أن يذكر فاطمة عند أبيها، وعندما تَشَجَّع قال له سيدنا النَّبيّ: « أهلًا ومرحبًا »، ولم يَزِدْ.

كأن سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ يختبر إصرار عليّ .

ظلّ علِيّ بن أبي طالب يفكِّر في « أهلًا ومرحبًا » دون أن يرى في الجملة ردًّا قاطعًا، فتَشَجَّع وذهب إلى سيدنا النَّبيّ يذكر فاطمة من جديد.

سأله: «وهل عندك شيء؟»، قال: «لا»، قال له سيدنا النَّبيّ: «وأين الدرع التي أصبتَها غنيمةً يوم بدر؟»، قال: « هي عندي »، قال سيدنا النَّبيّ: «فأعطها إياها».

كانت فرحة علِيّ بالموافقة عارمة، حتى إن عثمان رضى الله عنه قرَّر أن يشتري الدرع منه بأضعاف ثمنها، فحمل علِيّ المبلغ كله ووضعه بين يدَي الرَّسُول الذي ابتسم وأعطى بلالًا جزءًا، طالبًا منه أن يشتري طِيبًا للعروس، وجزءًا لأم سلمة لتشتري الجهاز.

فراش من جلد كبش، ووسادة محشوة بالليف، وخميلة، وقِرْبة ماء.. كانت قائمة العروس.

في يومٍ فكَّرَ سيدنا على أن يخطب ابنة أبي جهل، كان العرف أن يتزوَّج العرب أكثر من مرة بمن فيهم سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، لكن فاطمة شكَت إليه أن تجتمع في بيت واحد ابنة رسول الله وابنة عدو الله، فغضب لها أبوها وقال: «فاطمة بضعة منِّي ويؤذيني ما يؤذيها»، فرجع علِيّ عن نيته.

ذاقت فاطمة رضى الله عنها شظف العيش في كنف علِيّ،كانت تطحن بالرحى حتى تَشَقَّقَت يداها، وكانت تحمل قِربَة الماء حتى تركت أثرًا غائرًا في رقبتها، كانت تعجن العجين وتخمِّره، وتشعل التنُّور للخبز، وتكنس الأرض، وتجرش النوى للفَرَس، حتى هزل جسمها.

وذات يومٍ مرَّ ببيتها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآها نائمة من فرط الإجهاد والتعب، وكان الحسن يبكي من الجوع. شقّ على النَّبيّ أن يوقظ ابنته، وكانت في قلب الدار غنمة فحلبها بنفسه وظلّ يسقي الحسن حتى ارتوى.

(٧)

بعد موت النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توجهت فاطمة إلى أبي بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) تطالب بحقِّها في الميراث عن أبيها .

رفض أبو بكر أن يعطيها شيئًا وقال لها: «قال الرَّسُول لا نورّث وما تركناه صدقة.. وإني واللهِ لا أغيِّر شيئًا من صدقة رسول الله».

أحزنتها قسوة أبي بكر عليها وهجرته، لم تكلمه حتى انشغلت بمرضها. لم تكُن طامعة في أموال الصدقة، لكنها كانت ترى أن أبا بكر أخطأ في تأويل وصيَّة النَّبيّ وأنه يظلمها بالخلط بين عموم مال النَّبيّ وخاصته.

قبل موتها بأيام، وعندما اشتدَ عليها المرض أتى أبو بكر يطلب الزيارة، قال لها علِيّ: «يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليكِ»، نظرت إليه فاطمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) نظرة الزوجة المطيعة التي لم يغُرَّها أنها ابنة رسول الله، وقالت له بلهجة استئذان: «أتحب أن آذَنَ له؟»، قال: «نعم».

دخل أبو بكر وظل يترضَّاها قائلًا إنه لم يشأ أن يُغضِب النَّبيّ وإنه كان يتقِي الله في وصيَّته... ظلَّ يراضيها حتى ارتضت، لكنها قالت له معاتبة: «ألم تسمع رسول الله وهو يقول: من أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟».

روَّع أبا بكرٍ ما سمعه، فخرج إلى الناس والدموع تنساب من عينيه.

(٨)

عندما دخل سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون مكَّة فاتحين بعد سنوات الهجرة.. بحث علِيّ بن أبي طالب عن الحويرث القُرَشِيّ، حتى وجده فقتله.

ماريا القبطية

(رضى الله عنها)

(١)

استقرّ الإسلام في مصر وكبر على يد عمرو بن العاص، لكن مَن القائل إن ابن العاص كان أول مُسلِم تطأ قدماه هذه الأرض؟

(٢)

كثيرًا ما يسأل الواحد نفسه كيف كانت الأمور ستسير لو أن الدعوة هبطت على سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مصر.

نسيت السؤال لفترة ثم تَذَكَّرتُه من جديد إثر رواية إحدى قريباتي العائدة من عُمْرة لقِصَّة السيِّدة المصرية التي كانت تزور قبر النَّبيّ وأطالت الوقوف إلى جوار مقامه في تَبَتُّل وخشوع أزعج حارسات المقام فأبعدنها بقدرٍ من الخشونة التي لا تشبه المكان أبدًا، فما كان من السيِّدة المصرية إلا أنها نظرت باتجاه قبر سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلة: «إنت إيه اللي جابك عند الناس دي؟ إنت لو كنت عندنا كنا شِلْناك إنت وضيوفك في عينينا من جوّا».

هذه السيِّدة التي قد ترى أنها تجاوزت حدود الأدب هي مُحِبَّة بالفطرة لسيدنا النَّبيّ مثل عامَّة المصريين، هي التي تُهَدْهِد حفيدتها

على أنغام «ميتى أشوفك يا نَبِي.. يا اللي بلادك بعيدة»، فتضع في لا وعي حفيدتها أول حَجَر في بناء المحبة لسيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتحصِّنها بـ«اسم النَّبي حارسها»، هي التي تستقبل ضيفها الغالي بابتسامة بشوش: «إحنا زارنا النَّبي»، وفي نفس الوقت تعاتب على قلة الكرم وسوء الاستقبال بـ«ده النَّبي فرش عبايته لنسيبه»، وهي التي تفضّ مشاجرات تكبر أو تصغر بالجملة السحرية: «صلُّوا على النَّبي يا جماعة».

(٣)

يوم مات سيدنا إبراهيم ابن سيدنا النَّبيّ من ماريا القبطية رضى الله عنها كانت سِنُّه أقلَّ من عامين، وكُسِفَت الشمس يوم موته فقالوا كُسِفَت لموت ابن النَّبيّ، فقال: «الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

بكى الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لم يبكِ أحدًا من قبل.. بكى ليُعلِّمنا أن البكاء على الراحلين رحمة من الله، كان عبد الرحمن بن عوف -وفي رواية أخرى سيدنا أبو بكر- قد قال للنَّبيّ: «أوَلَم تَنْهَ عن البكاء؟»، قال سيدنا النَّبيّ: « إنما نهيتُ عن النِّياحَة ونَعْتِ الميت بما ليس فيه».

بكى النبي فقيده وقال: «إنما البكاء رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحَم».

كان إبراهيم قد أسلم رُوحَه وهو في حِجْر أبيه..

«يا إبراهيم، لولا أنه أَمْر الحَقّ لحزِنَّا عليك حزنًا أشدَّ من هذا، وإنَّا بك يا إبراهيم لَمَحْزُونُون، تَدمَع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يُسخِط الرب».. قال سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

صلَّى عليه ثم دفنه وسوَّى تربته بيديه الكريمتين.

(٤)

في مصر حكاية شائعة تقول تقول إنه في خطبة الجمعة وقف الخطيب على المنبر يقول: «خد بالك من جيل هذه الأيام، فإذا قالت لك ابنتك إنها رايحه الدرس فلا تصدِّقها، فهى ذاهبة للقاء الحبيييييييب»، فقال المصلون خلفه: «عليه الصلاة والسلام».

هذه النكتة تكشف لنا من جانب حال كثيرين ممَّن يجلسون في خطبة الجمعة أذهانُهم مشغولة بأمور أخرى غير الخطبة، لكن من جانب آخر تشرح كيف أن الانتباه كله يحدث إذا ما مرّ اسم سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل تجلياته (طه وأحمد والحبيب...)،حالة يقع فيها الانتباه لا إراديًا لأنه فعلًا الحبيب بالفطرة في قلوب

المصريين، ويعملون ألف خاطر لاسمه ويتجاوزون في ذلك حدود المقبول أحيانًا بحكم «الأفورة»، فيسمون «عبد النَّبيّ»، ويتغزلون بـ«يا جمال النَّبيّ»، ويقسمون بـ«وحياة من نبَّا النَّبيّ» (أي مَن جعله نبيًّا)، من الممكن أن يقسموا بالله مباشرة، لكنهم يعرجون على الحبيب في الطريق.

(٥)

عندما وصلت السيِّدة ماريا رضى الله عنها إلى المدينة قادمة من مصر وفي رفقتها أختها سيرين، اختار سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماريا ووهب أختها لحسان بن ثابت شاعر الرَّسُول.

أسكنها النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانًا قريبًا منه في بيتٍ لحارثةَ بن النُّعمان، وكانت جارةً للسيدة عائشة.

تقول السيِّدة عائشة رضى الله عنها : «ما غرت على امرأة إلا دُونَ ما غِرتُ على مارية»، كانت جميلةً صَبُوْحًا حسنة الدين، تختزل في رُوحِها سحر مصر بأسرارها وغموضها، وكان سيدنا النَّبيّ يزروها كثيرًا حتى شَكَت السيِّدة عائشة، فأسكنها سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكانًا بعيدًا يُسَمَّى «العالية»، ولم يَثْنِه ذلك عن زيارتها كثيرًا.

تقول السيِّدة عائشة رضى الله عنها: «فكان ذلك أشدَّ علينا».

كان بين السيِّدة ماريا والسيِّدة خديجة رضى الله عنهما عشر زوجات لم يهَبْن لسيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولدًا، لذلك اختصَّها بمحبة من نوع خاصّ أثارت غيرة باقي نسوته.

كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقة وقطعة غنم، فكانت ماريا رضى الله عنها تشرب من ألبانها وتسقي ولدها، وفي يوم اصطحب سيدنا النَّبيّ ابنه لزيارة عائشة رضى الله عنها وسألها أن تنظر إلى جماله فأنكرت عليه هذا الجمال فقال لها سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا ترين بياضه ولحمه»، قالت: «من قُصِرَت عليه النياق وألبان الضأن سَمِنَ وأبيضّ».

كادت عائشة تبكي من شِدَّة قهرها، فانصرف النَّبيّ بولده وهو يرثي لعائشة ويطلب من الله أن يهوِّن عليها ما تُكابِد.

كانت ابتسامة إبراهيم في وجه سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسمة ربانية منَّ عليه اللهُ بها ليخفِّف على رُوحه آلام فَقْد ابنته الغالية زينب، وقبلها رُقَيَّة وأُمّ كُلْثوم وعبد الله والقاسم.

بعد الوفاة.. أراد سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخفِّف عن ستِّنا ماريا، فأوصى عموم المسلمين أن يصلوا رحم سيدنا إبراهيم ابن ماريا القبطية فقال: «إذا ملكتم القبط فأحسِنُوا إليهم، فإن لهم ذمةً وإن لهم رحمًا».. لكنْ مَن أوَّل من ذكَّر المسلمين بهذه الوصيَّة؟

(٦)

«النَّبي وصَّى على سابع جار».. تمام، ويفكُّون تكشيرة عالِم الدين بـ«النَّبيّ تَبَسَّم يا مولانا».. تمام جدًّا، ويطلبون من كل شخص أن يعامل نبيَّه بالطريقه نفسها «وكل من له نَبِي يصلِّي عليه».. عين العقل، لكن كاد صديقي يُجَنُّ عندما قالت له والدته البسيطة في طفولته: «سيدنا النَّبيّ قال ماحدِّش يشرب من القزازة» عندما ضبطته يفعل ذلك أمام الثلاجة، فانصرف يبرطم... بعد سنوات كان صديقي يضرب كفًّا بكفٍّ وهو يقرأ في كتب الأحاديث: قال أبو هريرة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): «نهى الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يُشرَب مِن فِي السِّقَاءِ أو القِرْبة» (متفَق عليه)، أي نهى عن الشرب من حافَّة الإناء حفاظًا على نظافة وعاء شرب جماعي (يعني «ماحدِّش يشرب من القزازة»).

هذه السيِّدة البسيطة ربما استمتعت إلى المعلومة في إذاعة

القران الكريم، و عندما حان وقت تنفيذها لم تخاطب ابنها بلغة التربية والعيب والصحة والمنظر العامّ و«اللي يصحّ واللي مايصحّش»، لكنها خاطبته بلغة قانون المحبين: «سيدنا النَّبيّ قال...».

ينتظر المصريون كل مناسبة تخصّ سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليحتفلوا بها، حتى يوم مولده الذي حرَّم بعضُ المتشددين الاحتفال به لم تلقَ دعوتهم أي قبول لدى أي شخص تجري في دمائه جينات مصرية، ربما لو كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام بدعوته في مصر لأصبحت السنة كلها احتفالات، كنا سنحتفل بذكرى كل التفاتة مِن حضرته، وكل مكان زاره، وكل يوم نزلت فيه آية، وكل زيجة له، كنا سنقدّس كل شارع مرَّ به وكل إناء أكل فيه، وكل بقعة من النيل مدّ سيدنا النَّبيّ يده فيها ليشرب منها.

عقب حادثة قطار البدرشين وقف أحد الجنود الناجين أمام الكاميرا يشكو سوء الوضع داخل القطار أصلًا، وفي نهاية كلامه قال: «مش معاملة دي، إحنا صعايدة ونعرفوا الرَّسُول».

وقبل أن يتوقف دوري كرة القدم ذهبتُ إلى الاستاد في عز الفوضى إذ لم تكُن هناك تذاكر دخول، مجرَّد موظف أمن على البوابة قلت له «صحافة» فدخلت، ثم سأل آخَرَ كان قريبًا منّي:

«وانتَ تَبَع إيه؟»، قال له: «أنا تبع سيدنا النَّبيّ»، قال الموظف: «عليه الصلاة والسلام، اتفضَّل». وكنت أجلس مع فنان معروف في سيارته بينما أُمّ كُلْثوم تغنِّي: «ولما اشوف حدّ يحبَّك يحلا لي اجيب سيرتك ويَّاه»، فتَنَهَّد قائلًا: «عليه الصلاة والسلام»، ثم نظر إلَيَّ قائلًا: «أحلى سيرة في الدنيا».

(٧)

«مَن ينطلقُ بكتابي هذا إلى صاحب مصر؟» سأل سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..

ردّ حاطب بن أبي بلتعة: «أنا يا رسول الله».

فأصبح حاطب أوَّلَ مسلم تطأ قدماه أرض مصر.

عرض رسالة الإسلام على مقوقس مصر لكنه أبى أن يتنازل عن ملكه، وأمره أن يرجع إلى صاحبه بالهدايا: جاريتين (ماريا وأختها سيرين)، ومن بين الهدايا كان بعضٌ من عسلِ بنها الذي دعا له سيدنا النَّبيّ بالبركة.

قبل أن ينطلق الركب بالهدايا رأى حاطب في وجه ستنا ماريا

رهبة ووحشة من مفارقة الوطن، سألته عن سيدها الذي تفارق أهلها باتجاهه، حدَّثها حاطب عن سيدنا النّبيّ وعن الإسلام فشرح صدرها له فأسلمت قبل أن تغادر مصر.

(٨)

كانت السيِّدة ماريا رضى الله عنها قد وُلدت وعاشت طفولتها في قرية حفن التابعة لمركز ملَّوي بمحافظة المنيا.

وعندما تنازل حفيد سيدنا النَّبيّ سيدُنا الحسن بن الإمام علِيّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) عن الخلافة لمعاوية (١٤ هجرية) كان مِمَّا اشترطه أن يُعفِي قرية حفن من الخراج تكريمًا لستِّنا ماريا وعملًا بوصيَّة سيدنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قبلها كان الصحابي الجليل عُبادة بن الصامت قد بحث عن هذه القرية بعد فتح مصر حتى وجدها فبنى بها مسجدًا، بعدها أصبح اسمها قرية «الشيخ عبادة» المعروفة به حاليًّا.

(٩)

كنت أتمنَّى أن أولَد على التراب الذي حَطّ عليه سيدنا النَّبيّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقدمه الشريفة، لكن لله حكمة في ذلك، فنشْأةُ الدعوة في محيط الكفار قُساة القلب شدَّت أزر الدعوة وجعلَتها تشبّ صلبة وعفيَّة، وما كان هذا ليتحقق لو كانت الدعوة قد شبَّت هنا فى مصر في محيط المحبين.. المجاذيب.

نفعَنا الله بحبنا سيدَنا النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآل بيته، وليغفر لنا عفويتنا التي تجعلنا بحُسْن نية قد نتجاوز حدود اللياقة أحيانًا من فرط الْمَحَبَّة، لدرجة أننا أحيانًا نتجرأ فنوسِّط النَّبيّ بطفولة شديدة في أصغر الأشياء... اللي يحب النَّبيّ يصقَّف.

حاطِبُ بْن أبي بَلْتَعة

(١)

«مصر؟

وما الذي تعرفه عن هذه الأرض؟».

كان حاطب يستعدّ للسفر وفي قلبه بهجة كانت حريفة بعض الشيء بفعل غموض وجهته، وكان هناك من يسأله.

«لا أعرف سوى أنها سجنت يوسف ثم أكرمته، وكلَّم الله موسى داخل حدودها، وعندما لم يجد عيسى بن مريم مكانًا يُسنِدِ إليه رأسه في أورشليم حملته أمه على كتفها فوق حمار ورحلت به إلى هناك في رحلة شاقَّة استمرت ثلاث سنوات في ربوع هذه الأرض. إنها أرض مُبارَكة»، قال حاطب.

امتطى جواده ثم فتَّش في طيَّات ملابسه عن الرسالة التي يحملها، وعندما تَأَكَّد من وجودها انطلق.

كان المدى يبتلع حاطبًا، وكان رشيقًا فوق جواده وسريعًا بحيث لم يُثِر حوله أيَّ غبار.

بعد هذه الواقعة بعامين كان الغبار الذي ادَّخَر نفسه يحيط بحاطب بن أبي بلتعة، ولكن في موضع آخر مثير للريبة والشَّكّ.

(٢)

كبر حاطب وهو لا يحترف سوى شيئين: الفروسية والشعر، أخذ من الأولى ما تَيَسَّر من الأخلاق، ومن الثاني ما تَيَسَّر من رقّة المشاعر.

لولا الشعر لكان فارسًا عظيمًا ومحاربًا من الطراز الأول لكن بلا قلب، ولولا الفروسية لكان شاعرًا من الذين تضيع حياتهم في المنتديات ما بين مدح وهجاء أو هائمين في الصحارى يتلمّسون سطرين يختزلان آثار انصراف المحبوب عنهم.

كان في نهاية الثلاثينيات من عمره عندما جلس المسلمون بعد الانتصار في بدر يتغزلون فيه كواحد من أمهر رماة الحروب ساعد وجوده على تدعيم ثقة جيش المسلمين بنفسه، كان يختبئ كشاعر عندما يهاجمه المديح، لكنه أطلَّ من جديد كفارس غيور في أُحُد عندما سمع أحدهم يصيح من فوق الجبل: «قُتِل محمّد».

كان حاطب يدخل مصر من الجهة الشَّرُقَيَّة، يحمل رسالة النَّبيّ (صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى المقوقس، لكن هذا الأمر في حد ذاته لم يكُن يشغله، كان مشغولًا بردّ فعل المقوقس تجاه الرسالة، هل ستواجه مهمته المصير نفسه الذي انتهت إليه مهمة سفير آخر، لكن إلى كسرى الفرس؟

...

ما إن بلغ عبد الله بن حذافة أرض الفرس رسولًا من النَّبيّ حتى استأذن في الدخول على ملكها وأخطر حُجَّابه بالرسالة التي يحملها له، فأمر كسرى بأن تُزَيَّن قاعة العرش وأن يُدعَى عظماء فارس لحضور مجلسه فحضروا، ثم أذن لعبد الله بالدخول عليه.

دخل ابن حذافة، فما إن رآه كسرى حتى أمر أحد رجاله بأن يأخذ الرسالة منه فقال عبد الله: «لا، إنما أمرني رسول الله أن أدفعها لك يدًا بيد».

قال كسرى لرجاله: «اتركوه يَدْنُ منِّي»، فدنا من كسرى وناوله الرسالة، ثم دعا كسرى رجلًا يعرف العربية وأمره أن يقرأ عليه

نَصَّ الرسالة فإذا فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على مَن اتَّبَع الهدى...».

ما إن استمع كسرى إلى ذلك حتى غضب غضبًا شديدًا لأن النَّبيّ بدأ بنفسه، فجذب الرسالة ومزقها دون أن يكمل قراءتها وهو يصيح: «أيكتب لي بهذا وهو عبدي؟»، ثم أمر بعبد الله بن حذافة أن يخرج من مجلسه فخرج وعاد إلى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يحمل في طيَّاته غُصَّة الخيبة.

...

«... أم أن مَهَمَّته ستواجه مصير سفير الرَّسُول إلى هرقل ملك الروم؟»، فكَّر حاطب.

عندما دخل دحية الكلبي على هرقل الروم سفيرًا للنَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلَّمه رسالة تدعو إلى الدخول في الإسلام، تَأَمَّل هرقل الرسالة ودقَّق في الأمر كثيرًا مستفسرًا عن صفة.وأخلاق وطبيعة الرَّسُول، ثم قال: «قد كنت أعلم أن هذا الرَّسُول خارج إلى البشر، ولم أكُن أظنّ أنه منكم، فلو أنِّي أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه».

تأدّب هرقل وتلطّف في الجواب، وكانت إجابته معلّقة، ربما احتاج إلى بعض الوقت ليتأكد من أنه قد يستطيع أن يستجيب لهذه الدعوة بإخلاص.

فكّر حاطب في أن ردّ فعل المقوقس قد يتوقف على نَصِّ الرسالة، فاسترجع على مهل الكلمات المكتوبة التي كان يحفظها جيدًا.

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمَّد رسول الله إلى المقوقس، عظيم القبط. سلامٌ علي مَن اتبع الهدى. أمَّا بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلِمْ تَسْلَمْ يُؤتِكَ الله أجرك مرتين. (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ...)».

(٤)

كانت رسالة النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إلى المقوقس في العام السادس من الهجرة، ولكن بعد ذلك بفترة وقبل فتح مكَّة في العام الثامن تقريبًا، عرف النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن امرأةً ما تحمل رسالة إلى أهل مكَّة تخبرهم أن الرَّسُول وجيشه قادمون، وتحذرهم من الأمر، فبعث النَّبيُّ عَلِيَّ بْن أَبِي طَالِبٍ والزُّبَيْر بن العَوَّام ليدركا المرأة قبل أن تخرج من حدود المدينة... وقد كان.

كانت رسالة التحذير موجَّهة من حاطب.. هنا هاج الغبار المُدَّخَر قبل عامين.

(٥)

كان حاطب يسير بمحاذاة بحر الإسكندرية، متوحدًا مع زرقة بها مسحة من الحزن الخفيف رغم ما يحمله اللون من علامات البهجة، أما لمسة الحزن فقد التقطها كشاعر يرى الزرقة أسرع الألوان للإمساك بعصب عارٍ يمرّ بعُرْض الرُوح، أما البهجة فقد احتفظ بها المقوقس لنفسه إذا جعل مقر حكمه مُطِلًّا على بحر الإسكندرية، مكان ما أشبه بجزيرة لا سبيل للوصول إليها إلا بمركب.

كان حاطب ينتظر المركب الذي أمر به المقوقس ليحمل سفير الرَّسُول إليه، بينما يفكِّر إن كان لهذا الشاطئ العظيم نصيب في الإسلام، وإن حدث فهل سيكون هو سببًا في ذلك... أشعلت الفكرة حماسته.

أحسن المقوقس استقبال ضيفه، وقرأ الرسالة بتمعُّن... صمت لفترة ليست قصيرة، ثم باغت ضيفه بالسؤال.

قال المقوقس: ما يمنع محمَّدا إن كان نبيًّا أن يدعو علَيَّ فيُهلِكَني؟

كان النَبيَ صلَى اللهُ علَيه وسَلَم يدقَق في اختيار سفرائه لمثل هذه المناقشات.

قال حاطب: ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على مَن فعل به كذا وكذا؟

قال المقوقس:لا تردّ على السؤال بسؤال.

قال حاطب: إن لك دِينًا لن تدعه إلا لِمَا هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فَقْد ما سواه.

صمت المقوقس وفي عينيه شكّ ما.

قال حاطب: ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمَّد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل.

قال المقوقس: هل تنهاني عن الإيمان بالمسيح؟

قال حاطب: لسنا ننهاك عن الإيمان بالمسيح، ولكنَّا نأمرك به.

وجم المقوقس قليلًا فأردف حاطب قائلًا: كان قبلك في مصر رجل يزعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ثم انتقم منه.

قال المقوقس: ماذا تقصد؟

قال حاطب: أقصد اعتبِرْ بغيرك ولا تجعل غيرك يعتبِرْ بك.

لولا أصوات موج البحر لأصبح الصمت الذي سيطر على الجلسة مُوحِشًا.

كان حاطب يدعو الله أن لا يرُدَّه خالي الوفاض إلا من مرارة الإحباط، وكان المقوقس يبحث عن ردّ إن لم يكسب به وُدّ صاحب الرسالة فعلى الأقل لا يكسب به عداوته.

لم يكُن الأمر سهلًا.

(٦)

يومَ أُحُدٍ هُرِعَ حاطب ناحية النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فاطَّلع على النَّبيّ يغسل وجهه من الدماء، فقال حاطب: مَن فعل هذا؟

قال النَّبيّ: عُتْبة بن أبي وقَّاص، هشَّم وجهي ودقَّ رباعيتي بحجر.

قال: إني سمعت صائحًا على الجبل «قُتِلَ محمَّد»، فأتيت إليك كأنْ قد ذهبَت روحي، فأين تَوَجَّه عُتْبة؟

أشار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى حيث توجّه فمضى إليه.

كان الأدرينالين قد وصل إلى درجة الغليان في عروق حاطب، لم يكُن يعرف هل سيقتل عتبة بن أبي وقاص مرة أم مرتين، وهل يطفئ قتله الغضب الذي سكن الجميع بعدما شاهدوا الدماء تغرق وجه النَّبيّ...

انقطع حبل الأفكار عندما ظهر أمامه عتبة ولا يزال في يده الحجر الذي هشم به وجه الرَّسُول، فهجم عليه. تفادى حاطب أن يطعن عتبة في أي نقطة من جسده، ظلّ يحوم حوله إلى تمكن منه فضربه بالسيف ضربة واحدة أطارت رأسه بعيدًا، ظلّ حاطب يفتِّش عنه إلى أن وجده، فأخذه عائدا به إلى النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٧)

أرسل حاطب يستعجل المقوقس في الردّ على الرسالة.

قال المقوقس: قد نظرتُ فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهَى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النُّبُوَّة، ولكن فلتنتظر يومًا.

في أثناء الانتظار كان حاطب أول مسلم يصلّي على رمال بحر الإسكندرية.

(٨)

كان النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد اعتزم السير إلى مكَّة لفتحها، في صباح يوم ما أرسل النَّبيّ في طلب علِيّ بن أبي طالب والزُّبَيْر بن العوَّام، وطلب منهما أن يلحقا بامرأة في طريقها إلى مكَّة تحمل رسالة مِن حاطب إلى قُرَيش يحذِّرهم ويخبرهم فيها أن النَّبيّ في الطريق إلى هناك قريبًا.

لحق علِيّ والزُّبَيْر بالمرأة على حدود المدينة، طلبا منها الرسالة فنَفَت الأمر، فتَّش علِيّ متاعها لكنه لم يجد شيئًا.

قال علِيّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لنفسه: « واللهِ ما كذب النَّبيّ أبدًا»، كان متأكدا من أنها تحمل رسالة، فقال لها: « لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لنُلْقِيَنَّ الثياب ».

أدركت المرأة أن عليًا جادًا في تهديده، وأنه لن يغادر حتى يحصل على الرسالة حتى إذا اضطُرَّ إلى تفتيش ثنايا ملابسها، قالت لعلِيّ: أعرض، أعرض.

ابتعد على، ثم حلت المرأة غطاء شعرها، كان شعرها معقودًا

وكانت قد عقدت شعرها وبين طياته الرسالة، ثم قدمتها لعليّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) الذي عاد بها إلى النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

قال أحد الرواة إن حاطبًا كتب: « إن رسول الله قد تَوَجَّه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأُقسِم بالله لو سار إليكم وحده لنصره الله عليكم، فإنه مُنجِزٌ له ما وعده ».

وقال أحدهم إن حاطبًا كتب: « إن محمَّدا قد نفر، فإما إليكم وإما إلى غيركم، فعليكم الحذر ».

أرسل النَّبيّ في طلب حاطب، وعندما مثل أمامه، قال له النَّبيّ: «يا حاطب، ما هذا؟».

قال حاطب: «يا رسول الله، لم أكُن يومًا من آل قُرَيش،..

لا من أنفسهم ولا لي قرابة بينهم، ولكنهم كانوا مجرَّد حلفاء لأهلي..

وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة قادرة على أن تحمي أهاليهم وأموالهم..

فالتمست بهذه الرسالة عند قُرَيش يدًا تحمي أهلًا لي وولدًا بين أظهرهم..

ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رِضا بالكفر بعد الإسلام».

كان الصحابة يستمعون إلى حُجَّة حاطب، وينتظرون رَدَّ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٩)

كان حاطب يشقّ الصحراء على رأس قافلة في طريقه من مصر عائدا إلى النَّبيّ، ونص رسالة المقوقس يرنّ في أذنيه:

«إلى محمَّد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي، وكنت أظنّ أنه يخرج من الشام. وقد أكرمتُ رسولك، وبعثتُ إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها. والسلام».

(١٠)

كان الصحابة يستمعون إلى حُجَّة حاطب، وينتظرون رَدَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ.

«وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»، هذا ما كان في كتاب الله عن «الشعراء»، كان حاطبٌ شاعرًا، وكان الكتاب حُكمًا على صنف الشعراء، لكن الحكم كان مشمولًا باستثناء: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...»، هكذا يبدو الشاعر الصادق، وهذه كانت حقيقة حاطب.

كان الصحابة يستمعون إلى حُجَّة حاطب، وينتظرون رَدَّ النَّبِيِّ.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «أما إنه قد صدقكم».

آمنة

(١)

عندما بلغ السادسة من عمره طلبت منه أمه أن يتهيأ ليقابل أباه للمرة الأولى في حياته.

لم يكُن اللقاء عاديًّا.

«استَعِدّ للسفر إلى يثرب لزيارة قبر أبيك».. قالت آمنة.

(٢)

كان عبد المطَّلب جد الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نائمًا في حِجْر الكعبة، فأتاه في الحلم مَن يطلب منه أن يحفر بئر زمزم التي ردمتها السنون.

قام عبد المطَّلب يصحبه ابنه الوحيد وقتها، الحارث، وهمّ بالحفر بين الأوثان، غضبت قُرَيش مِمَّا يفعله عبد المطَّلب، وتجرَّؤوا عليه لَمَّا رأوه قليل الولد، فطلب من ابنه أن يذود عنه حتى يفرغ من مهمته، ولَمَّا رأى جرأةَ قُرَيش عليه دعا أن يُرزَق بعَشَرة أبناء ونذر أن يذبح واحدًا منهم في حِجْر الكعبة إذا استُجِيب دعاؤه.

تَدفَّق الماء عبر زمزم من جديد وفاض الخير على قُرَيش، وتَوَلَّى بعدها عبد المطَّلب سقاية زمزم للحُجَّاج.

ثم رزقه الله عَشَرة أبناء.

(٣)

في الطريق من الكعبة إلى بيت آمنة كان عبد الله حديث قُرَيش كلها ومَحَطُّ أنظارها، كان عبد الله يسابق الريح مدفوعًا بمشاعره تجاه آمنةَ، التي طالما خبَّأها حتى أطمأنّ على مصيره.. فطلب يدها للزواج.

استمرَّت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها إلى أن أذَّن المؤذِّن برحيل قافلته في تجارة إلى الشام... في طريق العودة ألَمَّت به وعكة قويَّة فنزل على أخواله في يثرب، ووصلت القافلة من دُونِه.

ظلَّت تنتظر رجوعه إلى أن أدركت أنها كانت آخر مرة يلتقيان فيها.

(٤)

كان عبد الله لا يعرف مصيره بعد أن نذره عبد المطَّلب للذبح في حِجْر الكعبة.

أخذه عبد المطَّلب، ولم يكد يهمّ بذبح ولده حتى قامت قُرَيش تمنعه قائلة: «ستصبح عادة وسيأتي كل رجل بابنه ليذبحه أمامنا.. فما بقاء الناس على هذا؟».

قال له شيوخ قُرَيش: «فلتنطلق بابنك إلى عرَّافة في خيبر، فإذا أمرتك بذبحه ذبحتَه، وإذا أمرتك بمخرج من هذا النذر فلتستجِب لها».

قالت له العرَّافة: «ارجعوا إلى بلدكم، وقرِّب ابنك وعشرة من الإبل، ثم اضرب عليهم بالقداح (شيء يشبه إجراء القرعة)، فإن خرجَت على ابنك فأضف عليها عشرة آخريات، واضرب بالقداح مرة أخرى، فإذا خرجت على ابنك فأضف عليها عشرة، وظَلَّ هكذا حتى تخرج القداح على ابنك، سيكون ربكم قد رضي ونجا ابنك».

أمام الكعبة ظلّ عبد المطَّلب يضرب القداح مرة بعد أخرى، وفي كل مرة يخرج على ابنه.

كم ناقةً تراصَّت حتى خرج القداح عليها وصاحت قُرَيش: «إنه رضا ربك يا عبد المطَّلب»؟

مئة ناقة.

نجا عبد الله من الذبح، لكن مات بعدها بشهرين.

(٥)

«إنه رضا ربك يا عبد المطَّلب».

كان أهل الجزيرة يعبدون الأصنام تقرُّبًا إلى الله، بعضهم كان يقول: «نحن غير مؤهَّلين لعبادة الله بغير واسطة لعظمته ولنقصنا» (وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) (سورة الزُّمَر)، وبعضهم يقول: «اتخذنا أصنامًا على هيئة ملائكة نعبدهم ليشفعوا لنا وليقرِّبونا إلى الله»، وبعضهم كان يقول: «في كل صنم جِنّ أو شيطان موكَّل من الله، فإذا أخلصت في عبادة الصنم سخَّر الله هذا الجن أو الشيطان ليقضي حوائجك، وإذا أهملت في عبادة الصنم أصابك الجنّ أو الشيطان بنكبة من أمر الله».

لكن مَن الذي يتحمل وزر سنوات من عبادة الأصنام؟

كان «هُبَل» مصنوعًا من العقيق على هيئة إنسان بذراع ناقصة، أكملها سادة قُرَيش في ما بعد وصنعوا له ذراعا من الذهب.

وكان واحدًا من ضمن ٣٦٠ صنمًا تحيط بالكعبة عندما دخلها المسلمون في فتح مكَّة وهُدمَت جميعًا.

كان صنم «مناة» في طريق البحر، وتولى هدمه بنفسه سيدنا عليّ بن أبي طالب.

كان صنم «العُزَّى» في منطقة تُسَمَّى وادي نخلة، وكان ضخمًا ويصدر عنه أصوات مخيفة (يقال إنه كان مبنيًا بجذوع الشجر)، تَوَجَّه إليه خالد بنِ الوليد، وبينما يهدمه خرجت من داخله حبشية نحيفة يبدو أنها كانت المسؤولة عن إصدار هذه الأصوات، فقتلها وهدم الصنم. والصنم هو جسم له صورة، أما الوثن فهو جسم ليس له صورة.

هل عبد والدا سيدنا النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هذه الأصنام؟

الإجابات في كتب السيرة كثيرة، أحَبُّها إلى قلبي تقول: «هذا عِلْم لا ينفع والجهل به لا يضرّ».

ولكن قيل إن والدي الرَّسُول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كانا هما وعبد المطّلب من الذين أدركوا التوحيد ببصيرتهم، إذ كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، فقد قالت السيِّدة آمنة قبل موتها:

إنْ صحَّ ما أبصَرتُ في المَنامِ

فأنتَ مَبعُوثٌ إلى الأنَامِ

تُبعَثُ بالتحقيقِ والإسلامِ

دِينِ أَبِيكَ البَرِّ إبراهامِ

فاللهُ أنهَاكَ عَنِ الأصنامِ

ألّا تُوَالِيهَا مَعَ الأقْوَامِ( )

وقال أكثر من مفسر: إن عبد المطَّلب كان مستجاب الدعوة، وهو الذي استغاث بالله تعالى يوم الفيل، فاستجاب الله دعوته فيهم.

ويقول ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) في قوله تعالى «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى»: مِن رِضَا محمَّد (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن لا يُدخِلَ أحدًا من بيته النار.

كانت العرب تَدِين بدين سيدنا إبراهيم، «الحنيفية» التي تقوم على التوحيد.

كان من بينهم عمرو بن لحي، وهو من سادات قُرَيش، عندما زار الشام وجده يمتليء بالأصنام، طلب تفسيرًا، فقالوا له: «هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا»، طلب منهم واحدًا فأعطوه هُبَلَ، وضعه في صدر الكعبة وأمر الناس

بعبادته لعظيم فائدته، ثم تبع عربُ الجزيرة كلهم أهل مكَّة لكونهم وُلاةَ بيت الله الحرام.

بعد فترة أسَرَّ إليه أحدهم أن أصنام قوم سيدنا نوح عليه السلام (وَدًّا وسواعًا ويَغُوثَ ويَعوقَ ونسرًا) مدفونة بجَدَّةَ، فاستخرجها وجاء بها إلى مكَّة، فلما جاء الحَجّ دفعها إلى القبائل، فعادت بها إلى أوطانها.. فانتشرت الأصنام بعدها انتشارًا كبيرًا.

بعد ظهور الإسلام بسنوات قال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إنه رأى عمرو بن لحي يسير في النار وهو يجرّ أمعاءه خلفه.

(٦)

نجا عبد الله من الذبح.. لكن مات بعدها بشهرين.

«لقد أمهله الله حتى يُودِعَني هذا الجنين».. قالت آمنة.

كان جنينها مبعث سكينتها إلى أن بدَّد عبد المطَّلب هذه السكينة عندما طلب منها أن تتهيأ للخروج من مكَّة مع قُرَيش بعد أن اتفقوا على الاختباء في شعاب الجبال هربًا من جيش أبرهة الحبشي الذي خرج من اليمن في طريقه إلى الكعبة حتى يهدمها.

تَهَيَّأ أبرهة بجيشه لدخول البلد الحرام فسلط الله نقمته عليهم فانتشر فيهم وباء مُهلِك رمَتهم بجراثيمه طير أبابيل، فجعلهم الوباء كالعصف المأكول. يقول ابن إسحاق: «لم تكُن أرض العرب قد شهدت وباء الحصبة والجدري قبل ذاك العام»، وقال عبد الله السهمي شاعر قُرَيش:

سِتُّونَ ألفًا لَمْ يَؤُوبُوا أَرْضَهُمْ   بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمُهَا

أي إنه حتى من نجَوْا من الموت بالوباء في مكَّة ماتوا متأثرين به عند عودتهم إلى اليمن.

انتهت المحنة وفرحت آمنة أنها ستستطيع أن تلد ابنها في مكَّة.

(٧)

في طريقه من الكعبة إلى بيت آمنة كان عبد الله مَحَطَّ أنظار قُرَيش كلها، إذ إنه لم يُفْدَ أحد قبله بمئة من الإبل.

في الطريق طاردنه نساء قُرَيش يعرضن عليه أنفسهن صراحةً ويُغرِينه بمَهْرِ مِثْلِ الإبل التي نُحِرَت عنه قبل دقائق.

تجاوزهن كلَّهن إلى بيت آمنة.

في صباح اليوم التالي على زواجه خرج من بيته فالتقى واحدةً منهن فأشاحت بوجهها عنه فقال لها: «مالك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنت عرضت عليّ بالأمس؟»، قالت له: «فارقك النور الذي كان معك، بالأمس رأيتُ في وجهك نورًا فأردتُ أن يكون لي، فأبَى الله إلا أن يجعله حيثُ أراد.. فماذا صنعتَ بعدى؟».

فقال: «تزوجتُ آمنةَ بنتَ وهب».

(٨)

بعد عوِدته من رحلة الرضاعة ظلّ في كَنَف أُمِّه تُنبِته بإلهام من الله نباتًا حسنًا..

إلى أن بلغ السادسة..

«استعدّ للسفر إلى يثرب لزيارة قبر أبيك».. قالت آمنة.

كان لقاءه الأول بأبيه، والأخير بأمه...

في طريق العودة من يثرب توُفِّيَت آمنة.

حَلِيمَة السَّعْدِيَّة

(رَضِيَ اللّه عَنْهَا)

(١)

بعد ظهور الإسلام..

كان النّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يجلس مع أصحابه فدخلت عليه امرأة، فابتسم قائلًا: أمِّي أمِّي.

اندهش الصحابة وهم يراقبونها تقترب منه، وبينما هي تقترب منه كانت تسترجع علاقتها بهذه الابتسامة..

في الوقت نفسه كان النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يبسط لها طرف ردائه حتى تجلس عليه...

(٢)

لم يكُن أي منطق يبرر أن تحظى هي تحديدًا بشرف إرضاع النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في ديارها.

كانت حليمة قد أنجبت للتوّ ولدا أسمته عبد الله.. كلَّما حاولت أن ترضعه وجدت ثديها يابسًا كالحطب.

كلَّما حاولت أن تحلب له ناقة وحيدة تمتلكها لا تجد في ضرعها نقطة لبن واحدة.

في الوقت نفسه كانت المجاعة تحيط بقومها.. وكان الجفاف والجدب أهمَّ ما يميِّز واحتها على خريطة المنطقة في ذلك الوقت.. فلا مطر ولا ثمر.

في ظروف مثل هذه وفي وجود طفل من لحمها ودمها يكاد يموت جوعًا.. ما المنطق الذي يدفع هذه السيِّدة لتخرج إلى مكَّةَ تلتمس طفلًا تكسب قُوتَها من إرضاعه؟

طيِّب، إذا تجاوزنا كل هذه الظروف.. ما المنطق الذي يجعلها -وهي تبحث عن الرزق- تأخذ رضيعًا يتيم الأب، بما يعنيه ذلك من احتمالات أن يكون المقابل ضعيفًا للغاية لغياب عائل هذه الأسرة؟

طيِّب إذا تجاوزنا كل ذلك.. ما المنطق الذي يجعل غيرة النساء حاضرة ومحرِّكة للأحداث بقوة بين كل ما سبق ذكره من قحط وفقر وأسًى؟

(٣)

بعد ميلاد النَّبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اختلطت الأحزان على أمه السيِّدة آمنة بين ترمُّلها في سن مبكِّرة، وهذا الطفل الذي يستقبل الحياة يتيمًا. جففتها الأحزان فلم تَقوَ على إرضاعه.

تولّت إحدى جواري العائلة إرضاعه لمدة ثلاثة أيام. إلى أن شاع خبر وصول عشر نساء من بني هوازن يطلبن الرُّضعاء، ومن بينهن حليمة السعدية.

مُعظَم المرضعات رفضن مبدأ إرضاع النَّبيّ لأنه يتيم، وبحثن عمَّن في خلفيَّته أب ثريّ، وبعد أن حملت كل واحدة طفلًا يُرتَجى من أهله الخير، بقيت حليمة خالية الوفاض بعد أن رفضها الجميع لضعف حالها البادي عليها بوضوح.

همّ الجميع بالعودة إلى ديارهم بينما حليمة السعدية تقف في الجوار مُحبَطة وإلى جوارها زوجها.

قالت له: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا.

كانت كرامة حليمة السعدية على الْمَحَكّ.

تخيلت نفسها في طريق العودة وكل واحدة من صاحباتها تحمل طفلًا وربما اثنين بينما هي الوحيدة من بينهن التي مثلما ذهبت رجعت، بما قد ينطوي عليه الأمر من سخرية محتمَلة، أو على الأقل نظرة استعلاء قد تجرح كبرياءها.

انهارت حصون حليمة الدفاعية وتنازلت عن جميع شروطها وقررت أن تقبل أي طفل يعرضه عليها أهل مكَّة.

في هذه اللحظة ظهر عبد المطَّلب جدّ النَّبيّ.

(٤)

تَغيَّر حال حليمة في طريق العودة بعد أن حملت النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فوق كتفها.

تَدَفَّق اللبن في صدرها فأرضعت النَّبيّ وابنها، وحلب زوجها الناقة ففاض خيرها، أما الأتان (أنثى الحمار) التي كانت تحملها في طريق الذهاب إلى مكَّة وكانت مَحَطّ سخرية الركب كله لضعفها ثم تحولت إلى مَحَطّ امتعاضهم لأنها كانت تعطِّل المسيرة، هذه الإتان كانت تسبق الرَّكب كله في طريق العودة.

قال لها زوجها: حليمة، انتبهى، لقد أخذتِ نسمةً مُبارَكة.

كان عبد المطَّلب جد النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال لها عندما التقيا أول مرة: نساء بني سعد أبَيْن أن يقبَلْنَه لأنه يتيم، فهل لك أن تُرضعيه عسى أن تسعدي به؟

وافقت.

اصطحبها عبد المطّلب إلى بيت آمنة.

كان النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نائمًا ملفوفًا في ثوب أبيض، دَنَت منه حليمه تتأمَّله، وطالت نظرتها إليه وهو نائم، وبينما تقترب منه لتحمله فتح النَّبيّ عينيه فجأة فشعرت برهبة، فابتسم لها.. فسكنَتها المحبَّة إلى الأبد.

(٥)

بعد عامين من الخير حان وقت الفطام، كان طريق العودة إلى مكَّة ثقيلًا على قلب حليمة، كانت طول الطريق تفكِّر في حُجَج مُقنِعة تُبقِيه معها، وفي مكَّة كان وباء ما منتشر، فكانت مهمَّة حليمة في غاية السهولة، وكان أن رجعت به إلى ديارها.

تَوَقَّف النَّبيّ عن الرضاعة وكبر سريعًا وتَفرَّغ للرعي، كان بنو سعد يضربون كفًّا بكفٍّ وهم يتأملون مسيرة النَّبيّ في رعي الأغنام، كانت أغنامهم تروح وترجع ولا تبدو عليها آثار النعم، وحدها أغنام النَّبيّ كانت تسمن وتفيض باللحم واللبن، فأصبح شعارهم «ارعوا حيث يرعى محمَّد».

أحَبَّه كل من حوله، وآمنوا بأن الخير موصول به، لذلك كان تَمَسُّك حليمه ببقائه بينهم لا حدود له، وفي كل مرة كانت تذهب به إلى السيِّدة آمنة وتعود به بحُجَّة مختلفة عمَّا سبقها، وهكذا إلى ان أصبحت سِنّ النَّبيّ ست سنوات.. وقتها كان لا بد للقصة من نهاية.

(٦)

كانت حليمة تقف في سوق عكاظ ومعها محمَّد، وعرضته على أحد المنجِّمين الذين يقرؤون الطالع فصاح المنجِّم: « يا معشر العرب.. اقتلوا هذا الصبيّ.. واللاتِ والعُزَّى ليظهَرَنَّ أمره عليكم»، وبينما يبحث العرب عن الطفل كانت حليمة تحمله وتجري مبتعدة عن السوق وقد دبَّت فيها هِمَّة لم تعهدها.

شعرت حليمة بالخوف وفكَّرت أنه ربما حان الوقت لأن تعيده إلى أهله، فهم أقدر على حمايته، وتَأكَّدَت ظنونها عندما كانت في الطريق إلى مكَّة والتفتت فلم تجد النَّبيّ، فأسرعت منهارة إلى عبد المطَّلب، وقبل أن يهمّ بالبحث عنه وجد رجلًا يدخل عليه وفي يده محمَّد بعد أن ضلَّ الطريق.

نظر عبد المطَّلب إلى حليمة نظرة عتاب، فوضعت عينيها في الأرض وقالت: لقد قضيت الذي عليّ.. لقد انتهت مهمَّتي.

(٧)

أن تضرب ببصرك بعيدًا فلا يحدُّه بيت أو زحام فتتمرن الرُّوح على أن تبلغ أقصى اتساع ممكن لها...

أن يسأل قلبك وتنتظر الإجابة فتأتيك صافية لا يشوِّش عليها شيء...

أن تتخلى عن ملعقة ذهب مضمونة في بيوت الأعمام والأقارب في الحَضَر وتستسلم لتقشُّف البادية منذ لحظات إدراكك الأولى، فيشبُّ الجسد وطعامُه الشدائدُ ويشبُّ الوجدان وطعامه الرِّقَّة...

شرب النَّبيّ اللغة من رجال بني سعد الذين أذابت شمس الصحراء كلَّ شحوم لغتهم العربية فصاروا رُسُل الفصاحة. يقول النَّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أنا أعْرَبُكم.. أنا قُرَشِيّ واستُرضِعْت في بني سعد بن بكر.

اختفى النَّبيّ من بين أقرانه كثيرًا وهو طفلٌ، في المرة الأولى كانت لهفة حليمة عليه قاتلة، ثم صارت القصَّة معروفة، كلَّما اختفى النَّبيّ كانت حليمة تقول: إنه جالس على قِمَّة الجبل.

كانت قِمَّة الجبل مكانه المفضَّل كطفل يتعلم أبجديات النُّبُوَّة.

كانت إقامته في الصحراء مع حليمة السعدية وأهلها بمثابة إقامة في حضّانة ساعدته على أن ينمو رُوحيًّا بشكل مختلف.

كان سيناريو النُّبُوَّة يقتضي أن يشبَّ بعيدًا عن الحَضَر بكل ما فيه من تشويش.. أن يشبّ في رحاب حليمة في هذا المدى المفتوح حيث لا شيء.. وكل شيء.

هكذا يصبح للحكاية منطق.

أَسماءُ بِنتُ أَبِي بَكرٍ

(رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)

أَمِينةُ السِّرِّ

(١)

كانت تخشى أن يضيع منها حلم الأمومة إلى الأبد. فعلى الرغم من أنها كانت في أشهُر الحمل الأولى فإن الكلام الشائع كان مُربكًا؛ كانوا يؤكدون أن اليهود سحروا للمسلمين فلا يُولد لهم أطفال.

في الوقت نفسه وبينما تحلم بلقب «أم»، كانت تجافي أمّها «قتيلة بنت عبد العُزَّى»، كانت قتيلة من المشركات وكان أن طلّقها أبو بكر في الجاهلية، وكانت تحاول أن تُوَادَّ ابنتها التي أسلمت، كانت تطرق بابها بالهدايا لكن أسماء كانت تأبى أن تقابلها أو تقبل هداياها... مرةً تِلوَ أخرى، إلى أن نوَّبَتها الحيرة فذهبت إلى النّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تستشيره، فنزلت الآية صريحةً: «لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

أرسل النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلب أسماء، وعندما حضرت قال لها: «صِلِي أُمَّك».

بعدها بشهور كان عبد الله هو أول مولود في الإسلام، نال شرف أن يهدم الأسطورة ويطمئن قلوب المسلمين وأن يكون بُشرَى كبيرة للنّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

احتضنه النّبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم طلب تمرة فمضغها حتى ذابت ثم بَلّ ريق المولود بها.

بعدها بسنوات طويلة كان عبد الله ابنها يحارب الحَجّاج بن يوسف الثقفي، كان الثقفي يرجم مكّة بالمنجنيق وعبد الله يذود عنها وعن أهله، وكان جنود الثقفي يصيحون فيه من بعيد ويعيّرونه: «تعالَ يا ابن ذات النطاقين، لا تخَفْ يا ابن ذات النطاقين».

حكى لأمّه ما حدث فقالت: «والله إن كانوا نادوك بذات النطاقين فقد قالوا الحقّ».

(٢)

بعد أن بدأ النّبيّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأبو بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) طريقَ الهجرة، وما إن خرجوا من مكّة، حتى جُنّت قُرَيش كلها.

كان أبو جهل يعرف أنه سيجد الخبر اليقين عند أسماء بنت أبي بكر، ذهب إلى بيتها مع أصحابه، وحاول أن يعرف منها أين ذهب أبوها وصاحبه، إلا أنها كتمت السرّ كما ينبغي.

كان غضب أبو جهل جنونيًا، استفزه إنكار أسماء فهوى على وجهها بكفّ يده.

سيطر الصمت على الأرض كلها في هذه اللحظة، ولم يكن سوى صوت الصفعة وهي تزلزل وجه أسماء.

سقط قرط أسماء على الأرض من فرط قسوة كف أبي جهل. همَّت قريبة لها بأن تنحني على الأرض لالتقاطه فنهرتها أسماء: هذا ليس موضع انحناء أبدًا.

انصرف أبو جهل، وبعد خطوات التفت إلى الخلف فوجد أسماء تقف شامخة أمام باب دارها.

وجدها تنظر بثبات إلى عينيه فتَعَثَّر في سيره ثم قام مهرولًا ينفض ثيابه.

(٣)

كان زوجها الزُّبَيْر بن العوَّام (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) مبشَّرًا بالجنة، لكن هذا لم يصنع منه مَلَكًا.

كان زوجها شديدًا عليها، كانت تشكو إلى أبيها فيقول لها: «اصبري»، ويقال إن ابنهما عبد الله أرغمه على طلاقها بعد أن بلغت شِدَّته معها منتهاها.

إلا أن هذه الشدة لم تُتلِف أجمل ما فيها، كانت أسماء في سباق

دائم مع السيِّدة عائشة في الكرم والجود، يقال إن عائشة كانت تجمع الشيء إلى الشيء إلى أن يصبح قدرًا بمرور الأيام فتتصدَّق به، أما أسماء فلم تكُن تدَّخر شيئًا لغد أبدًا، وكان تَصَدُّقها قرينًا لزهدها، وكانت تُوصِي مَن حولها بأن انتظار فضل الصدقة يُفسِدها: تَصَدَّقْن ولا تنتظرن الفضل.

زهدت في كل شيء حتى بصرها الذي ضاع منها بمرور الزمن، ولكن حتى ضياع البصر لم يوقف مسيرة زهدها، أهداها أحدهم كسوة فاخرة من العراق، لمستها ثم قالت: «أفٍّ، رُدُّوا عليه كسوته»، فلمَّا أحسَّت بأنه قد شق عليه برَّرَت ذلك بأن الكسوة تشفّ، قالوا لها: «لا تشفّ »، قالت: « فإنها تصِفُ»، فلمَّا يئسوا أحضروا لها كسوة فقيرة خشنة، لمستها فقالت: « مثلَ هذا فاكسُني».

لم تحزن يومًا على ضياع بصرها، بل أسعدها إذ رأت فيه هديَّةً تُصلِح الحال، كان أقلُّ من ذلك يسعدها، يصيبها الصداع فتقول: «بذنبي، وما يغفره الله أكثر إن شاء الله ».

أمَّا كيف فقدت بصرها، فيقول الزُّبَيْر بن العوَّام إنه دخل على زوجته تصلِّي وهي تقرأ: «فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ» فتستعيذ وتبكي، يقول: « فخرجتُ من البيت، وغِبتُ لا أذكر كم طالت غيبتي، ثم رجعتُ فوجدتها على الحال نفسه تبكي وتستعيذ ».

كانت أسماء تفقد نور عينيها بالتدريج بالمقدار نفسه الذي تمتلك به قوة الإبصار بالانوار الإلهية، فلما كان العام المئة من عمرها هجرت الأرض إلى منبع النور.

(٤)

بينما عبدِ الله ابن الزُّبَيْر مشغول بمقاومة هجوم الحَجَّاج بن يوسف الثقفي على مكَّة، سرق لحظات ذهب فيها إلى أمه يشكو إليها أن معظم مَن حوله قد خذلوه، ويسألها ماذا يفعل...

قالت له: «إن كنت تعلم أنك على الحقِّ فامضِ له، فقد قُتِلَ عليه أصحابك، وإن كنت تريد الدنيا فبئس العبد أنت».

قال: «انظري يا أماه، إني مقتول مِن يومي هذا، وأنا لم أتعمد إتيان مُنكَر ولا عمل فاحشة ولا الجور في الحكم ولا ظلم مسلم، إنما أقول لك ذلك لا تزكية لنفسي ولكن تعزية لأمي، فلا يشتدَّ حزنك لأمر الله».

قالت: «اللهم قد أسلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيتَ».

وقف عبد الله يودِّعها ثم قال: «قد يمثِّلون بجثتي بعد موتي».

قالت: «لا يَضِيرُ الشاة سلخها بعد ذبحها».

همّ بتقبيل يدها فعندما اقترب لمست الدرع فوقه فانزعجت وقالت: «هذه الدرع لا تُشبِه كلَّ ما قُلتَه لي».

قال: «إنما ارتديتها حتى لا تشعري بخوف علَيَّ».

قالت: «إنما هي ما يجعلني أخاف عليك».

فنزعها.

(٥)

كان جسد عبد الله بن الزُّبَيْر مصلوبًا في المسجد الحرام بينما رسول الحَجَّاج الثقفي يطرق بيت أسماء طالبًا حضورها، فرفضَت.

عاد الرَّسُول قائلًا: « يقول الحَجَّاج لَتَأتِيَنِّي أو ليبعثَنَّ لك من يسحبك من قرونك »، فرفضَت.

طرق الحُجَّاج بابها، ففتحت له...

قال: «إن ابنك ألحد في هذا البيت وأذاقه الله من عذاب أليم ».

قالت: «كذبت، لقد كان الصوّام القوّام».

قال: «إنك لا تعرفين قيمة ما فعلتُه بعدوٍّ الله هذا».

قالت: «أعرف.. لقد أفسدْتَ عليه دنياه، وأفسدتَ على نفسك آخرتك».

(٦)

بعد أن انصرف أبو جهل عن باب بيت أسماء يتعثر في سيره، دخلَت أسماء لتُعِدَّ مؤونة مشوار الهجرة لأبيها وصاحبه، وبعد أن أنهت عملها شقَّت النطاق الذي ترتديه نصفين، نصف لحمل الطعام ونصف صنعت منه رباطًا لقربة الماء.

وهي تخرج من دارها ليلًا حاملةً المؤونة شعرت كأن قدمها قد داست فوق شيء صلب، مدَّت يدها فوجدت قرطها الذي طار منها صباحًا بفعل صفعة أبي جهل.

في الطريق إلى غار ثور كانت أسماء تسلك دروبًا وعرة وممرَّات مُوحِشةً في ظلام مُطبِق دون أن تتوقف لحظة واحدة عن البكاء.



مصادر ومراجع:

١- كتاب الطبقات الكبير - محمَّد بن سعد بن منيع الزهري (مكتبة الخانجي - ٠٣٢ هجرية - طبعة ١٠٠٢).

٢- حياة محمَّد - د.محمَّد حسين هيكل (دار المعارف - ٥٣٩١ - طبعة ٩٠٠٢).

٣- زوجات النَّبيّ وآل البيت - الإمام محمَّد متولى الشعراوي (المكتبة التوفيقية - ١٠٠٢).

٤- الكنز في المسائل الصوفية - الإمام صلاح الدين التجاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٨٠٠٢).

٥- بنات النَّبيّ - د.عائشة عبد الرحمن (الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٠١٠٢).

٦- صفة الصفوة ٠٠ ابن الجوزي (مكتبة دار المعرفة - ٧٩٥ هجرية - طبعة ٥٨٩١).

٧- نساء النَّبيّ سِيَر وقضايا - سعيد هارون عاشور (مكتبة الآداب - مصر - ٦٠٠٢).

٨- زينب العروس الهاشمية - إبراهيم محمَّد حسن الجمل (دار الفضيلة - ٧٩٩١).

أرباح الكاتب عن هذا العمل تم التنازل عنها لصالح بنك الطعام لدعم مجهوده فى محاربة الفقر.

فهرس **رقم الصفحة**







معاً.. ضد الجوع

أرباح الكاتب عن هذا العمل تم التنازل عنها لصالح بنك الطعام

